

وزارة الثقافة
دار الكتاب العربي للطباعة والنشر

المكتبة الثقافية
جامعة صرة

العدد ١٩٨

بلزاك

حياته وأدبه

تأليف: دكتور أنور لوقا



الثمن ٣ قروش

١٥ مايو ١٩٦٨

المكتبة الثقافية

(جامعة صبة)

١٩٨

بلزك

حياته وأدبه

مكتبة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

تأليف: دكتور أنور لوقا

دار
الكاتب العربي
للطباعة والنشر
بالقاهرة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
١٩٨٨

A mon cher maître
Monsieur Bernard Guyon,
Cet ouvrage qu'il ne lira pas, mais qui
se propose d'initier les lecteurs arabes au
monde balzacien, tel que me l'a révélé son
enseignement à l'Université du Caire, en
hommage de fidèle gratitude.

Anouar Louca
Le Caire, avril 1965

الى استاذى العزيز برنارد جويون
هذا الكتاب الذى لن يقرأه ، ولكنه
ينشد اطلاع قراء العربية على دنيا
بلزاك كما جالها لى تدريسه بجامعة
القاهرة ، تحية عرفان خالص

القاهرة - أبريل ١٩٦٥
أنور لوقا

التلميذ الأديب

جفته أمه منذ طفولته . وكان أبوه ، «برنار فرنسوا بلسا» ،
موظفا شيخا غريب الاطوار تستفرقه أبحاث عجيبة يريد بها اصلاح
المجتمع والعودة الى الطبيعة ، واطالة عمر الانسان ، وحماية
أعراض الفتيات . فانطوى الصبي - «أونوريه» - على نفسه ،
واحس بالوحدة في هذه الدنيا التي لم يكد ينزلها .

لم يجد من صديق يسكن اليه الا أخته «لورا» .

وحين بلغ في سنة ١٨٠٧ عامه الثامن ، ألحقته أسرته بمدرسة
«فندوم» الداخلية ، حيث أظهر من الكسل والتبلد ما أفسد رأى
أساتذته فيه . وكم أنفق ساعات الدرس يرتو من نافذة «الفصل»
الى أشجار الفناء أو زرقة السماء ، لا يرده عن شروده زجر ولا يردعه
عقاب ! على أنه صبحا بعد سنتين : فقد أخذ يتطلع الى طلبة الفرق
العليا ويعجبه بلغاؤهم اذ يتشاطرون أو يلقون الخطب الانشائية
المنمقة . وراح يحاكيهم ، فلم يلبث حتى امتلا قمطره بأوراق شعراء ،
وتحدث زملاؤه الصغار عن روعة بيانه وبراعة قلمه . وأنه ليكتب
ذات يوم «بحثا في الإرادة» ، يضبطه معه بعض مدرسيه ، فيصادره
ويبيعه - كما يؤكد تلميذنا الأديب - لاحد البقالين في المدينة .

وبين جدران تلك المدرسة ، كان الصبي يلمس محاسبة
المعلمين الأتراب له بعينهم . وكان يعاني من املاقه وعجزه عن ابتياع

الادوات القشبية ، لان أسرته كانت تحبس عنه النقود ، على حين كان رفاقه يبدرون الدراهم في شراء الحلوى ويعيرونه بفقره . رأى ((أونوريه)) في المدرسة اذن عالما صغيرا مشيدا على أسس من الفوارق الجائرة ، عالما يسوده سلطان المال ، عالما يحارب الفضل والامتياز، ويناصر السواد الاعظم من غلاظ النفوس والتافهين والخبثاء . وانها لصورة مصغرة لما سوف يلقاه في المجتمع حين يخرج الى الحياة .

وكان في الرابعة عشرة من عمره يوم هسرت أمه الى تلك المدرسة الداخلية ووجدته في غيبوبة حمى عاتية ، فعادت به الى بيت الاسرة في مدينة ((تور)) . كان سبب هذه الحمى افراط الفلام في القراءة ، فقد التهم في الخفاء جانبا كبيرا من مكتبة المدرسة ، كتباً دينية وتاريخية وفلسفية وعلمية . ولما أفاق وأبل ، راح يحدث أهل البيت عن مجده المقبل ، وشهرته المحققة ، وصيته الذي سيطبق الآفاق . فكانوا يضحكون منه ، وكان يضحك من ضحكهم .

وفي العام التالي استبقتته الاسرة حرصا على صحته ، والحقته ((بليسيه)) تور . ثم أرسله أبوه الى باريس ، حيث عهد به الى صديق له يدعى ((مسيو لبيتر)) كان يدير مدرسة داخلية . وهناك لم تكن حال تلميذنا الاديب خيرا منها في ((فندوم)) ، وان كان ممتازا دائما في مادة ((الانشاء)) . فاذا أتم دراسته الثانوية سنة ١٨١٦ ، مضى الى السربون يسمع في شغف وحماسة محاضرات ((جيزو)) و ((فكتور كوزان)) . وكان الاخير يلقي دروسا في التصوف وما اتخذ من صور مختلفة على مر العصور ، فتتجاوب أصداء دروسه في صدر هذا الفتى الاديب الذي يقبل على الفلسفة ويعب كتبها عبا ، ويلتقط ((مذكرات فلسفية)) ويسجل ((بحثا في خلود النفس)) .

ولكنه ماكان يستطيع أن يختلف الى السربون ولا الى المكتبات الا في أوقات فراغه . فقد دفعه أبوه الى الالتحاق بكلية الحقوق ، ليتبوا في مستقبله كرسيا من كراسي القضاء ، ودفعه في الوقت

نفسه الى مكتب الاستاذ «جيونيه مرفيل» ، أحد أصدقائه المحامين في باريس ليتدربه ثم الى مكتب موثق العقود الاستاذ «باسي» ليتم تدريبه . وقضي الفتى في هذا المكتب وذلك أعواما ثلاثة ، لقبوه أثناءها «بالفيل» ، لانه كان بدينا ، بطيء الحركة ، منصرفا عن العمل . بيد أنه هنا يخبر الحياة ويلو الواقع ، ويرى بين يديه مشاهد الانسانية الرهيبة . وهل أروع من مكتب المحامي مسرحيا لهضومي الحقوق وهاضميها ، وكاسبى الصفقات وخاسريها ، والجارين وراء المال يلهثون ويتناحرون ، يختلسونه من القريب ويحتالون على ابتزازه من الغريب ، ويقلبون في سبيله الاوضاع ، وينسون بذكره أنفسهم وأنفس الناس ؟ . . لسوف يؤلف هذا «الكاتب» البدين من تلك المشاهد أصدق فصول «الكوميديا البشرية» .

وينظر الفتى الى نفسه ، ويلمس حاجته الى المال لكي ينطلق الى الحياة وينهل من ينابيع الشباب . ولكن والديه لايفدقان عليه، فيتهمهما بالبخل والتقتير ، ويبيت في نفسه العزم على أن يفتح معاقل الثراء والجاه والمتعة . وتصطحبه الاسرة - لتسرى عنه أحيانا - الى الحفلات والمراقص ، فلا تحفل به هناك سيدة ، ولايقبل عليه أحد ، ويقعده الخمول والارتباك ، وإذا هو يفيض حقدا ونقمة ورغبة في السيطرة على النساء والرجال والكبار والصغار جميعا . . ولن تكون وسيلته الى التسلط واغتصاب الجسد الا الكتابة والأدب . .

ويحال الأب الشيخ الى المعاش سنة ١٨١٩ ، وبخسر ماودع من ماله في بعض مشروعات التجارة والاقتصاد ، فيقرر أن تنزع العائلة الى الريف ، ويفتح ابنه الفتى بأنه قد رسم له قصر سبيل الى وظيفة «موثق العقود» . ولكن الفتى يريد أن يكون شاعرا . .

- الا تعرف ، أيها الولد الشقى ، أنك في عالم الادب ان لم تكن ملكا فستكون صعلوكا ؟

- لسوف اكون ملكا .

ويحتد الاب ، وتثور الام ، ولكن الولد لا يتزحزح عن رايه .
وتنجلى العاصفة اخيرا عن هذا القرار :

- اذن فسنمهلك سنة تختبر فيها نفسك .

وترحسل الاسرة الى فيلباريزيس ، ويستقر الفتى الاديب في
باريس ، لكى يمتحن مواهبه وبيانته ، على شريطة ألا يظهر وألا يلقي
الاصدقاء والاقرباء . وكيف ترضى أسرة طيبة أن تعترف بأن لها
ولدا «أديبا» يرفض الاشتغال بتوثيق العقود ؟ سيتفقون جميعا على
أن يذيعوا في الأهل والخلطاء أن «آنوريه» عليل سقيم ، وأنهم
أرسلوه ليستشفى ويستجمل في بلدة «ألبي» . .

ولم تكن «ألبي» سوى غرفة صغيرة فوق سطح منزل فقير بشوارع
«ليديجير» ، قرب مكتبة «الارسنال» . غرفة عارية إلا من منضدة
عرجاء ، وكرسیين من خشب ، وسرير غير وثير ، وستارتين ذابلتين
تكرمت الأم بأن تخلعهما على النافذتين ، وصوان صغير للملابس أنفق
الفتى الاديب يوما كاملا يبطنه بالورق ويثبت عليه قفلا ، ثم زجأجه
فارغة يفرس في فوهتها الشمعة ويوقدها ويسهر الليل . .

وقد كتب بلزاك في هذا الطور من حياته الى أخته «لور» رسائل
طريفة تفيض مراحا ومزاجا ، فهو يسخر فيها من كل شيء ، من بؤسه
وفقره ، ومن عمله وأمله :

«ليحي البقالون ! فأنهم يبيعون طول النهار ، ويحصون في
الليل ربحهم . . ويسعدون . أجل ، ولكنهم ينفقون وقتهم بين
الجبن والصابون . ليحي بالآخرى الادباء ! فأنهم جميعا مملقون من
المال واغنياء بتكبرياتهم فقط . صه ! لنضع هؤلاء هؤلاء ، وليحي
الجميع !»

ويتردد الفتى الاديب في النهار على مكتبة ((الارسنال)) ، ثم يترىض طويلا في ((حديقة النباتات)) ، أو يرقى الى مقابر ((بير لاشيز)) من حيث يلقي بصره فيشهد باريس كلها ، ومن حيث سينظر بطله ((راستنيك)) - بعد أن يدفن ((الاب جوريو)) - الى المدينة الخلابية الجبارة ويتحداها . فاذا شفى نفسه من الطواف بالقبور واستلهم المعاني والعبر ، خرج الى الحي يقضى حاجاته ، ويختلط بالعامية في السوق ، يتأملهم في مساوماتهم ومشاجراتهم ، ويضطرب بين العمال ساعة انصرافهم ، فيشتتم في كلماتهم ومظاهرهم من المآسى المغمورة مالاتحسه العاصمة السادرة وما لا يلتفت اليه احد . ويقول بلزاه ان ملاحظة الناس كانت ((تسليتي)) الفريدة ، وهذه التسلية بعينها هي التي ستمده فيما بعد بكثير من مشاهد ((الكوميديا البشرية)) . ولا يكاد يجن الليل حتى يطهو طعامه ويصب قهوته ، ويربض أمام الورق المبسوط على منضدته ويبيت يقدح ذهنه ويجري قلمه ، ناهضا كلما أرهقته مغالبة الافكار واللغة فيعتمد بجبهته على زجاج النافذة ، من حيث يعيش الى أضواء الشارع المختلجة في الظلام ، ويستترسل في أحلامه ببعد الصيت ومتعة الحب - وسكون الليل الساجي يصور له من الاماني الشاردة حقائق قريبة حية منتعشة نابضة ، ويوحى اليه بأنه قادر على أن يخضع الدنيا لأرادته ..

انه هنا ليثبت مقدرته وفنه ، انه يريد أن ينتج ، ولكنه لا يكاد يدري ماذا يريد أن ينتج ! ففي رسائله الاولى حيرة وتردد ونظرات زائغة . هو ذا يفكر أول الامر في كتابة القصة ، ثم يعدل عن القصة الى مشروع مسرحية عن ((سيلا)) تكون من نوع المأساة العنيفة ، غير أنه يوطد العزم على تدبيج مسرحية شعرية عنوانها ((كرومويل)) .

وقد علمته ((كرومويل)) ما لم يكن يعلم : علمته أن نظم الشعر أمر عسير شاق ، ونبهته الى بعض قواعد الكتابة المسرحية ، فهو

يحدث اخته عن «خطة» روايته قائلا : «ان الخطة رائعة ، ومازالت هناك أخطاء ، وان كانت هيئة في الواقع . ولكن العرض جميل ، والقلق يتزايد من مشهد الى مشهد حتى تقع الكارثة» . أى أنه فطن الى مدار الرواية «التصاعدي» الذي نجده عند الكاتب المسرحي «كورنى» في القرن السابع عشر . ولقد اختار بلزائمه لهذه المسرحية موضوعا رائعا ، خليقا بأن يهز أعصاب النظارة بالتأثر ويهز أكفهم بالتصفيق : ملك سجين في عقر قصره يحوم حوله شبح الموت ، ومتآمرون مترددون يدفعهم الى الجريمة رجل صارم طامع عنيد ، ومملكة متاجرة العاطفة يبلبلها الخطر الذي يهدد زوجها وتحاول بكل قواها ان تنقذه . وحرص المؤلف الفتى على ان يؤجل دخول الملك الى الفصل الثانى ، كما كان يفعل مولير وكورنى اذ يشغلان النظارة بحديث البطل ولا يخرجانه اليهم الا بعد تشويق طويل ، وحرص كذلك على ان يجعل المشهد الاخير من كل فصل مفاجاة تثير استطلاع الجمهور الى الفصل الذى يليه . . على ان هذا كله كان أشبه بتمرين مدرسى لم يكن لينفق مع استعداد الفتى الاديب في ذلك الوقت . فقد كان رأسه يهوى كل شيء بأفكار وفلسفة يريد ان يعرضها . ولكنه لم يكن يعرف نفسه اذ ذاك .

عاد أونوريه بعد شهر تسعة الى فيلباريزيس ، حاملا معه مسرحيته ، معتدا بها ، متوقعا ان يفوز بالتقدير والاعجاب والثناء . وسرعان ما تشكلت في البيت محكمة أدبية تضم جميع أفراد العائلة وبعض الاصدقاء . وأخذ الفتى الاديب في انشاد شعره الرصين ، فاذا الوجوه جامدة كأنها قدت من الثلج . ثم يتبادل المستمعون نظرات الحسرة والاسى . ويجرؤ أحدهم على اعلان الرأى العام في شيء من العنف ، فيحتج المؤلف بشدة ، ويطلب استئناف الحكم لدى هيئة مختصة . وهنا يقترح المهندس «سورفيل» خطيب «الورا» ان يعرض العمل على أستاذه الاديب «أندريو» . وبعد ان يقرأ

أندريه مخطوط المسرحية ، يصدر الحكم التالى : « على هذا الاديب
أن يشتغل بأى شىء ماعدا الادب » .

ولا علينا اذا أهملنا تلك المسرحية الفاشلة ، فلسوف يقول
عنها بلزاك فيما بعد انها «بلاهة طفل حقا» .

ومادام قد أخفق فى الكتابة للمسرح ، فليكتب قصة لجمهور
القراء ، قصة فلسفية عنوانها «ستينى أو الاخطاء الفلسفية» ، بطلها
فتى يدعى «أيوب أو يعقوب ديل رئيس» يعود ، بعد عدة سنوات
أنفقها فى باريس الى مسقط رأسه «تور» حيث يلقي أخته فى الرضاعة
«ستينى» فيحبها ويهيم بها ، وتحبه وتهيم به ، ولكنها مخطوبة
«ليانكسى» رجل لا تحبه قط وانما تزوجها به أمها طمعا فى ثرائه ،
ولا يحبها قط وانما يتزوجها طمعا فى ثرائها . وبعد مقاومة عقيمة ،
يستسلم الفتى لعاطفته ، فيقنع الزوجة بأن أوضاع المجتمع فاسدة
وأن الدين خرافة والخطيئة وهم والله غير موجود والروح غير
خالدة ، ويتفقان على قضاء اللذة ثم الانتحار ، غير أن ستينى تابى
فى اللحظة الأخيرة ، وتبلغ أخبارها زوجها فيدعو غريمه الى المبارزة
.. وهنا ينتهى المخطوط ، الذى لم يطبع ولم يعرفه جمهور القراء
الا سنة ١٩٣٦ !

وحسبنا أن ننظر فى هذه القصة الى اطارها الفنى المطاط ،
فقد صاغها بلزاك فى مجموعة رسائل يتكاتبها الاشخاص ، ويعرضون
فيها لمناقشة كل شىء ، كما فعل «روسو» فى قصته الشهيرة «هلويز
الجديدة» ، ومن ناحية أخرى الى انها أول قصة بمعنى الكلمة
ينشئها بلزاك ، وأنه لم ينشد فيها القصة لذاتها وانما اتخذها
وسيلة لعرض الآراء الاجتماعية والمذاهب الفلسفية - شأنه فى
«الكوميديا البشرية» فيما بعد .

ذلك كان فى حياة بلزاك طور التلميذ الاديب الذى يريد أن

يكتب وينبه ويفتصب المجد ، فلا يرقى مخطوطه الى المطبعة ، ويظل
نكرة مغمورا ، لانه لم ينضج ولم يتدرب ولم يستطع أن ينتج نجيبا .
وها هو ذا يلجس في سنة ١٨٢١ استعصاء النبوغ عليه ،
واشتداد تهديد أسرته له بالوظيفة ، فينضم الى زمرة من صغار
الادباء الصحفيين ، ويسترسل في كتابة مجموعة من الروايات الغثة
ينسجها على منوال القصص الرائجة في ذلك العصر ، وينعتها بأنها
«مشروعات أدب تجارى» .

البحث عن فن

كان الفرنسيون يقرءون نحو سنة ١٨٢٠ - أى حين بدأ بلزاك انتاجه الادبى - ثلاثة ألوان من القصص : القصة الغرامية ، والقصة السوداء ، والقصة المرحية .

أما القصة الغرامية ، فكانت تتخذ أبطالها دائما من أفراد الطبقة الاجتماعية الممتازة ، أولئك الذين يحملون الألقاب ، ويرثون عن آبائهم الثروة والصيت ، ولا يكادون ينتظمون في وظيفة أو عمل ، وإنما ينفقون أوقاتهم الخالية في الاصغاء لحديث القلب واتبع العاطفة ، ويقفون حياتهم على حب سيدات رقيقات جميلات ، من نفس الطبقة الاجتماعية الممتازة . وتدور حوادث القصة الغرامية في «صالون» من صالونات باريس أو قصر من قصور الأشراف في الريف . ولم يكن يخفف من وطأة ذلك الجو العام ، التشابه ، الجارى على وتيرة واحدة في جميع تلك القصص إلا أصحاب الأدوار الثانوية ، هذا الحسود أو هذا العاذل أو هذا الخائن ، الذى ينتمى في أغلب الأحيان الى الطبقة الاجتماعية الوسطى ، وفيه يضع الكاتب من الرذائل قدر ما يضع في نفوس الأبطال من فضائل وسجايا ، فإن مثل هذا الشخص أقرب الى دنيا الأحياء وأدنى الى الواقع حيث يتميز فرد من فرد بخلق أصيل . وكان أثقل ما فى هذه القصص خروجها على المألوف وإفراطها في المبالغة بنزعتها الاخلاقية التى تدفعها أحيانا كثيرة الى تجسيم الفضيلة في مقام تصوير فتاة ،

والدأب على وعظ القارئ الشاب بأن سلامتهن في طاعة أمهاتهن والحذر من الفوابة ، وأحيانا أخرى الى وصف الصراع الدائر في فؤاد زوجة صغيرة يأبى القدر إلا أن يضع في سبيلها عاشقها الولهان فتقاوم عاطفتها حتى تموت شهيدة الاخلاق الفاضلة . ومادامت رسالة القصة متعة ودرسا معا ، فقد كان الكاتب الناجح هو الذى يعرف كيف يستغل المشاعر وكيف يستدر الدموع ، بأن يقود بطله أو بطلة من يأس الى يأس ، ويفريه أو يفريها بالانتحار ، ويعرض على قرائه مايتخلل ذلك من وداع خطابي بليغ يلقيه الرجل ، أو ولولة وجدانية مؤثرة تلقيها المرأة ، فان المؤلف ليستسلم لتيار من الخيال يلهمه الكوارث تلو الكوارث ، فيوقف أشخاصه أعجب المواقف ، ويوشى بالتكلف أحاديثهم وحركاتهم ، ويشتط في الابتعاد بنا عن الحقيقة .

وأما «القصة السوداء» ، فكانت تعتمد على الحوادث العجيبة الخارقة التى تثير في نفس القارئ ولعا بالارهاب والقلق ، فمن شبح يظهر ويختفى ليعمل واقعة أو يمنع وقوعها ، الى شرمة من اللصوص الاشرار تعيث في الارض فسادا ، الى عصاة من قطاع الطرق الابطال الذين يتولون حماية الضعيف ونصرة المظلوم وتأديب الجائر ، وهنا وهناك تنتشر السرايب والمتاهات والغرف الحائكة الظلام والاصوات الغامضة الرهيبة . وقد يكون بطل القصة مجرما لثيما ينعم في الشر ، ويلد له الائم ، ولا يردعه عقاب ، ويستمد الشر والتجبر من نفسه الخبيثة ، وقد يكون شخصا من بني آدم تحالف معه الجن او عاهدده الشيطان كما تخيل « جوته » في قصة «فاوست» الشهيرة . واذا استثنينا هذا الضرب الاخير ، رأينا ان القصص السود تلتقى جميعا وتشابه في عدة مواقف عامة : خائن اقترف في الماضي جريمة بعينها لكى يشرى أو يبلغ منصبا رفيعا ، ولايزال يحيط بالشراك ضحيته ، بطة القصة - وهى فتاة فاضلة كصاحبيتها من بطلات القصص الغرامية وان كانت لاتجعل

العاطفة محور حياتها - حتى تنكشف الجريمة شيئا فشيئا بفضل شخص قوى ينهض للدفاع عن البطة المستضعفة وينصرها على المعتدى البغيض . وقد يستند الكاتب مهمة حماية الفتاة لحبيبها نفسه ، وقد يستند لراهب أو قسيس ، أو شخصية كريم يتنكر في صورة شبح ، أو يستند - ليوفر على نفسه مشقة التفكير المنطقي السليم - الى كائن غير مادي هو روح القتيل التي تتبع القاتل ولا تهدأ حتى تثار منه . ولذلك تغلب على القصة السوداء ((وحدة المكان)) الذي تجرى فيه الحوادث ، فان الاشباح لا تآوى الى كل بقعة من الارض ، وانما تستوطن قصرا عتيقا ذا أبراج واسراب وغرف مخصصة للتعذيب مليئة بأدوات رهيبة ... هناك ملاحم الهول والرعب التي تروع جمهور القراء .

وأما ((القصة المرحية)) فكانت تعنى قبل كل شيء بالاضحاح والسخرية ، فتتخذ اشخاصها من الطبقة الاجتماعية الوسطى ، تعرض عاداتهم واحاديثهم ، وتدفعهم الى الاضطراب والاختلاط والاحتكاك ، وتترك للمصادفة وحدها أن تدير دفة الحوادث ، وتقدم للقارئ من هذا كله جوا فكاهيا هازلا ، متلاحق المآزق ، متدفق النكات . لولا اسراف هذه القصص في الهزل والعث والمجون لكانت - بما يتخللها من ميل الى الملاحظة وتسجيل الحقيقة - خطوة موفقة في سبيل القصة الاجتماعية .

وكان لهذه الروايات على اختلاف ألوانها طابع خاص من ناحية الانشاء . فهي خالية من كل تمهيد ، لاتبدأ بتعريف القارئ بأشخاص القصة ومكان بعضهم من بعض ، وانما تجرى بينهم حوارا لا يكاد القارئ يفهمه أو تحركهم حركات لا يكاد القارئ يحسن تعليلها ، وتتخذ من غموض المسأى وسيلة للتشويق والامتناع . ثم تهوى الى الفصول ، وتقع في كل فصل أحداث جديدة ، ويقبل عليك أشخاص جدد ، ولكنك لاتستطيع أن تقف على رابطة واضحة محكمة تربط

فصلا بفصل ، حتى اذا اقتربت نهاية القصة علمت أن كل فصل من الفصول التي قرأتها لم يكن الا ظاهرة من الظواهر المترتبة على الماضي الغامض الذي ينجلي لك في آخر الامر .

عرف بلزاک هذه الألوان من القصص الفرنسي ، وألف أبطالها ، واعتاد مواقفها ومفاجأتها ثم عرف القصة التاريخية التي أبدعها الكاتب الاسكتلندي «ولتر سكوت» ، وأعجب بها ، فكانت عنصرا قويا من العناصر المؤثرة في أسلوبه .

أراد ولتر سكوت أن يصور تاريخ بلاده وحضارتها الماضية وحياة أسلافه كما عاشوها ، أراد أن يبعث المجتمع الاسكتلندي القديم في قصصه ، فجدد بذلك مادة القصص وموضوع الرواية ، وجدد صياغة القصة وعمارة الرواية بما يقتضيه هذا الغرض الجديد . ومن هنا كانت الصفحات الاولى في روايات هذا القصص المؤرخ معرضا للمكان والاشخاص والعادات ، احاديث طويلة يتجاذب اطرافها قوم يصورون لنا في لغاتهم الخاصة مشاغلهم وأعمالهم وصفاتهم وأفكارهم ، ويخبروننا بأمر ما كان من الاحداث وينبئوننا بما يتوقعون أن يكون ، فنعيش معهم في هذا الجو الذي سيخيم على القصة كلها . وبعد هذا التقديم المستثنى ، تقع الاحداث ، وتدور الدوائر ، وتنصل الكوارث ، دون أن يضطر الكاتب الى التوقف لشرحها وتعليلها ، فليست بالقارئ الذي اجتاز الصفحات الاولى حاجة الى شرح وتعليل . ولئن صاغ «ولتر سكوت» أبطاله في قالب أبطال القصة السوداء أحيانا كثيرة ، فقد اعتنى بالشخصيات الثانوية في القصة ، وكان يروق له أن يتوقف بهم ويبرز وجوه الطرافة فيهم .

وقد تعلم بلزاک من «ولتر سكوت» كيف يمهد للقصة ، كيف

يصف المكان والزى والخلق ، كيف يبعث البيئة ويخلق الجو ، وكيف يدير الحوار ، ثم كيف يصب الأحداث بعد ذلك صبا ، غير مهمل أصحاب الادوار الصغيرة في الرواية . وكما صور «ولترسكوت» في سلسلة من الروايات مجتمعا بأسره ، هو المجتمع الاسكتلندى في القرون الوسطى ، سوف يصور بلزاك في سلسلة من الروايات مجتمعا بأسره ، هو المجتمع الفرنسى الذى عاصره .

وها هو ذا بلزاك ، يعاونه زميلان من صغار الادباء هما لبواتفان ليجريفيل ، واتيبين اراجو . (Le Poitevin de l'Egreville, Etienne Arago)

يشرع في كتابة الروايات لسواد القراء ، بأسماء مستعارة تفنن ثلاثتهم في اشتقاقها من أسمائهم الحقيقية .

صدرت في بدء سنة ١٨٢٢ « الوارثة دي بيراج » L'Héritière de Birague أولى هذه الروايات ، وقد اشترك الثلاثة في تدبيجها . والقصة تجرى في فرنسا في القرن السابع عشر . وتتخلص في محاولة رجل ايطالى مغامر أن يتزوج «الوين دي بيراج» ليستولى على ثروتها الضخمة ، فقد وقف على سر يخفيه والداها ، ويتيح له أن يودى بها اذا رفضاه زوجا للفتاة . ويقوم «الكونت دي مورفان» وزوجته بدور «الشرير» التقليدى الذى يتستر على جريمتيه ويؤنبه ضميره ويخشى الفضيحة ، حتى اذا تقدم ذلك الصعلوك المغامر طالبا يد الوارثة نظير صمته لا تدخل شيخ غامض الاطوار معتزل في قصر عامر بالسرايب المسحورة ، فانقلد الفتاة لتتزوج حبيبها في آخر الأمر . اذن فهي قصة «سوداء» كاملة العناصر : سر دفين ، وشرير لثيم ، وزواج بالاكراه ، ونصير قوى ، وقصر مسحور . . . غير أنها تزيد على عناصر القصص السود هذين الشخصين المضحكين ، «الكابتن شاتكلو» ، حما الكونت ، وصديقه «فيروش» وهما ضابطان

متقاعدان ، لا مكان لهما في صلب القصة على الإطلاق ، ولكنهما يتدخلان في كل شيء ، ويضيفان على المواقف الحرجة جوا من الهزل والمرح ، ولا يشك الأستاذ بارديش - الذي درس بالتفصيل تطور فن القصة في أدب بلزاك - في أنها محاكاة مباشرة لشخصية ضابط في إحدى قصص « ولتر سكوت » التي ترجمت إلى الفرنسية سنة ١٨١٩ .

في هذه القصة تدرب بلزاك على صياغة الحوار واختلاق الأحداث . وواضح أنه غير جاد فيما يروى ، وأنه يبالغ ويفرط في تقليد النماذج التي يجدها أمامه ، لا يتخرج من نسبته أغرب المفاجآت للمصادفة وحدها ، ولا يتورع عن إيراد المعجزات تثرى . لقد تطور موقف بلزاك من الكتاب الذي يكتبه . ففي قصة « ستيني » كان جادا يحاسب نفسه ، ويأبى على خياله الجموح ، ويشعر بالمسئولية إذا ما ينتجها ، ويحرص على الإجابة والالتقان ، أما في « الوارثة دي بيراج » فإنه لا يعا بمنطق ، ولا يقطب جبينه ، وإنما يطلق لخياله العنان ويعبث بكل ما يخلقه ويسرف في هذا العبث . . . ليوقف الكاتب بعد ذلك هذا المرح وليكيف عن هذا الهزل ، إذن فسيشعر إذ ذاك أنه خليق بأن يروى كل شيء مهما يكن أمره ، وأن قدرته على العرض والسرد والتقديم والانشاء قد اكتسبت مرانة وقوة وخصبا . وهذا ما يحق لنا أن نتوقعه من كاتبنا في أطواره المقبلة .

بعد أشهر ثلاثة أصدر بلزاك بالاشتراك مع دليجر فيل ، أحد زميليه ، رواية « جان لويس أو اللقيطة » ، رواية فكاهية تنسب إلى « القصة المرحلة » وأن كانت تستعير مدارها من حوادث « القصة السوداء » . ويأسف الأستاذ جويون لأن بلزاك كان حديث السن قليل التجربة فج الفن حين أخرج هذه القصة ، فقد كانت جديرة بقلمه حين ينضج فيما بعد ويؤرخ للمجتمع الفرنسى . ذلك أن

مغامرة « جان لويس » هى قصة وصول الشعب الى دست الحكم وتقلده السلطان اثناء الثورة الفرنسية . أحب هذا الفتى - وهو ابن تاجر غنى من تجار الفحم - لقيطة تدعى «فانشيت» ، وما كان يتأهب للاقتران بها - بعد أن اعترضته سلسلة من العقبات اجتازها حتى يتضح أن العروس هى ابنة الدوق « بارتناى » ، ومحال أن يتزوج فتى من أبناء الشعب سلبية بيت من بيوت الأشراف . وهنا تنشب الثورة الكبرى فتقلب الاوضاع الاجتماعية - او بالأحرى تصححها . ولكن الدوق يعود الى فرنسا فقيرا مدينا ، مصرا على رفض جان لويس - الذى يبدى استعداده لأن يسدد له ديونه - مصرا على أن يزف ابنته لابن أخته العريبد « الماركيز دى فاندوى » . ولم يكن بد دون زواج الحبيبين من أن يتدخل فى الأمر أمريكى يدعى « مايكو » كان قد ورد للدوق فى الماضى كمية من السم وأقبل يهدده بأن يفشى كل خافية اذا هو أبى ذلك الزواج .

فى هذه الرواية تحرر بلزاك من قيود المنطق ، ومضى يخلق الأحداث والمغامرات والمواقف المضحكة ، دون ترتيب ، ودون مبرر اللهم الا أن تثير الضحك . لقد تدرب اذ أجرى قلمه وأطلق خياله فى انشاء هاتين القصتين خير تدريب يحتاج اليه الفنان فى اول طريقه . هو يعرف الآن أن ينسج الموضوع ، يعرف أن يسكنه الحوادث ، وأن يتآمر مع الأبطال ، يدعوهم متى شاء فيحضرون ويقصيه متى شاء فيتوارون . انه لم يكتسب بعد أسلوبا بعينه فى معالجة الصعاب الفنية التى تقوم أمامه بين لحظة وأخرى ، لم يتخذ بعد مذهباً بعينه فى صياغة القصة ، ولكنه اكتسب حرية مطلقة فى الاخراج وخفة وبراعة فى الحركة .

★★★

وفى النصف الثانى من سنة ١٨٢٢ يصدر بلزاك ، وحده ،

ثلاث روايات جديدة : « كلوتيلد دي لوزنيان أو اليهودى الوسيم »
فى شهر يوليه ، موقعة باسمه المستعار « Lord R'Hoone » ثم
« المعمر مائة سنة » و « قسيس الأردن » « فى شهر نوفمبر ، موقعتين
باسمه المستعار الجديد « Horace de Saint-Aubin »

أما قصة « اليهودى الوسيم » Clotilde de Lusignan « فرواية
تاريخية تنقلنا الى القرن الخامس عشر ، حيث نشهد جان الثانى ،
ملك قبرص الذى نفاه البنادقة ، يلجأ وابنته كلوتيلد الى قصر
لوزنيان فى مقاطعة البروفانس بجنوبى فرنسا . والقصة حافلة
بضربين من المغامرات ، سلسلة من المغامرات الحربية وسلسلة من
المغامرات الغرامية : فهناك شقى من قطاع الطرق يحاول اختطاف
الملك اللاجئ لى يسلمه للبنادقة ، ويشد أزره فى ذلك سياسى
ايطالى من أصحاب المبادئ الماكيافيلية ، على حين يتولى الفارس
الشجاع الكونت جاستون أمير البروفانس الدفاع عن الملك ،
ويستبسل : حتى ينقذه ، فينال يد ابنته كلوتيد . ولكن الفتاة تحب
يهوديا وسيما يدعى « نيفتالى » وتقسم له لتتحرر ما دام أبوها
قد وعد الكونت جاستون بها ، وأخيرا تقع المعجزة ويتضح أن
اليهودى نيفتالى لم يكن إلا الكونت جاستون هو بعينه ! . .

وقد نسج بلزاك هذه القصة على متوال قصة ولترسكوت
الشهيرة « ايفانهو » Ivanhoe غير أنه مازال قاصرا عن استيعاب فن
ذلك الكاتب العظيم الذى يعجبه . فانه لم يفلح فى تصوير جو تاريخى
اصيل ، ولم يفلح فى أن يجسم فى أشخاص القصة طبقات المجتمع
الذى اختاره اطارا ، ولم يتخلص من تخيل المعجزة أساسا يشيد
عليه الرواية . ومع ذلك فينبغى أن نسجل لبلازاك شيئا من التقدم
بلفه فى خالق الشخصيات ، فما من شك فى أن أشخاص هذه القصة
أرقى من أصحابهم فى قصة « الوارثة » . هناك كانوا يتبادلون الالفاظ
الجوفاء لاضحاكنا ، ولكن الفكاهة هنا تتبع من فكرة ثابتة خاصة

يعتقها الشخص ولا يحيد عنها في أى موقف وقف . لم يستطع بلزك حتى ذلك الطور أن يستشف النفوس ، وأن يجلو الخلائق ، ولكنه استطاع أن يرسم ظلالا لكائنات حية .

وتأثر بلزك بكاتب انجليزى آخر يدعى « ماتوران » حين قرأ في سنة ١٨٢١ الترجمة الفرنسية لقصته العجيبة « ملاموث أو الرجل الهائم » (Melmoth) وما هو ينكب على تقليده في قصة « العمر مائة سنة » ، وفيها يستعير فصولا بأسرها من نموذجه الانجليزى دون تصرف ملحوظ . وهل نستطيع أن نميز « الشيخ بيرنجلد » من « ملاموث » ؟ كلاهما ذو قدرة خارقة للطبيعة ، مصدرها ميثاق أبرمه مع الشيطان ، وكلاهما حظى بأن يعمر على الأرض أطول مما يعيش سائر البشر ، وذلك مقابل شرط بعينه ، فعلى ملاموث أن يجد في نهاية المائة عام نفسا تقبل أن تهب ذاتها للشيطان حتى ينجو هو من الهلاك ، وعلى الشيخ بيرنجلد أن يختطف فتاة وينحرها فتسرى حياتها في عروقه ويتجدد شبابه . وعلى الرغم من هذا الفارق، تنقضى حياة الشيخين جميعا في البحث عن الصحة ، ولا يكفان عن اختراق الجدران ، واغاثة الملهوفين ، والوثوب من قارة الى قارة .

ولم يستمد بلزك من « ملاموث » شخصية البطل واحداث الرواية فحسب ، بل استمد منها أيضا أسلوب السرد والانشاء ، هذا الذى لا يرتب الفصول ترتيبا زمنيا تاريخيا ، ولا يصل بينها برباط وثيق ، وإنما يدع لكل شخص يقد علينا أن يروى لنا مغامراته السالفة رواية مستقلة ، دون مراعاة لحديث من سبقه أو حديث من يتلوه ، وذلك ما يعرف « بالقصة ذات الإدراج » (Roman à tiroirs) ولكن بلزك يعود في آخر الرواية الى

تقاليد « القصة السوداء » وموضوعها الاثير ، ذا يختطف الشيخ فتاة تدعى « ماريانين » ، فيبحث عنها خطيبها « توليوس » حتى ينقذها في الوقت المناسب من الحديد والنار والعذاب الرهيب الذى أسلمت اليه في السرايب الخفية والغرف المظلمة . إذن فقد تعلم

بلزاك من ملهوث دروسا كثيرة ، ولكنه لم يزل ميالا الى استغلال الاشباح وجرائم السفاحين والاشقياء ، تلك التي استخدمها من قبل في « الوارثة » وفي « جان لويى » .

وأما « قسيس الاردين Le Vicaire des Ardennes » فقصه فتى يجهل أبويه ، أحب فتاة ظنها أخته ، ففر من حبها الى الكنيسة ، ولكنه لا يلبث حتى يلقي أمه ويعرف أن الفتاة التي أحبها ليست شقيقته ، فيترك خدمة الدين ليستأنف غرامه القديم . وهنا تبدأ سلسلة من الاحداث العنيفة تبعد بنا عن جو القصة العاطفية المألوف . ذلك ان الفتى غريما هو زعيم عصاة من التراصنة يدعى « أرجو » . وبعد مغامرات الاختطاف والتعقب يصفو الجو للحبيين بيد أن الزوجة تكشف أخيرا أن زوجها قسيس حرام عليه الزواج ، فيقضى عليها الأسى ، في اللحظة التي تعفيه فيها الكنيسة من الخدمة .

وهذه القصة لا تكاد تفضل « ستينى ١ » ، أولى قصص بلزاك ، الا بمرونة السرد والحوار . ولا يكاد اثر « ولتر سكوت » يضيف اليها قيمة جديدة ، فقد سئمتنا تلك الشخصيات الشانوية التي ينقلها بلزاك عن الكاتب الاسكتلندى ، من قسيس لا ينطق الا بالحكم والأمثال في كل مناسبة ، أو خادمة ثرثرة لا تعرف أن تكتف سر . ولكن الجديد في هذه القصة هو أثر الشاعر الانجليزى « بايرون » الذى استمد منه بلزاك شخصية « أرجو » هذا الجبار العنيد الثائر على المجتمع ، هذا الذى يجول ويصول وينعم ويشرى ولا يلحقه من الناس أذى لانه متنكر يكتف عن الناس أمره . وما من شك في أن صورة « أرجو » هى الصورة الاولى التى يخطها بلزاك لبطله الشهير فيما بعد « فوتران » المجرم ، الثائر على المجتمع الفاسد ، الشيطان الذى يحتاج الى ملك بجواره الا أن شخصية « أرجو » هنا سطحية كثيرة الاضطراب ، لا يحركها ذلك المبدأ العميق . ولعلها أقرب الى شخصية « الشرير » المعروفة في « القصص السود » . وما موقف الفتاة « ميلانى » بين القرصان أرجو والقسيس جوزيف الا موقف ماريانين بين الشيخ

بيرنجلد وابن عمها « بوليوس او موقف فانشيت بين جان لويس
والماركينز دي فاندوى .

وهكذا تتشابه قصص اديبنا الناشء جميعا : يريد أن يقلد
« ولتر سكوت » ولكنه ينجذب نحو القصر العتيق وقاطع الطريق
ونصير المستضعف ، ويريد أن يقلد « ماتوران » ولكنه ينتهى الى
السراديب الخفية ، والبطلة العزلاء والمجير الكريم ، ويريد أن يقلد
القصص الغرامية وأبطال « بايرون » ولكنه ينسى ما يريد أن يقلد
القصص الغرامية وأبطال « بايرون » ولكنه ينسى ما يريد بين حوادث
الاختطاف ، ومغامرات النضال ، ومحاولات الحبيب الضعيف الفوز
بفتاة أحلامه .

والحق أن بلزاك كان يقصد في كل مرة أن يكتب قصة غرامية،
قصة عاشقين ، ولكن الناشرين كانوا لا يقبلون في تلك الايام الا رواية
طويلة تضمها أربعة مجلدات ، وتقسم في اغلب الأحيان الى ثلاثين
فصلا . لم يكن له بد اذن من أن يضيف الى القصة الاصلية سلسلة
من الحوادث الخارجية حتى تتم فصولها الثلاثون ، فيحفل الناشر
بنشرها ، ويحفل القارئ بقراءتها .

وبينما كان بلزاك ينتج انتاجه هذا التجارى الغث كان يواصل
هواية المطالعة والتأمل . وكان يميل بوجه خاص الى الشعر ،
ويحاذى بالنظم او النثر اندريه شنييه ولا مارتين وبليرون وقصص
« الف ليلة وليلة » . وقد أوحى اليه تلك المطالعات وتلك الأحلام
قصة « الجنية الأخيرة La dernière fée » . وهى حكاية صبية
يدعى « ابيل » نشأ يحب صور الجنيات ويطلق النظر فيها ، فلما
شب وفقد أبويه ، تعزى بحب الفتاة الفقيرة « كاترين » التى تشبهه
احدى الجنيات الحسنات ، ثم بهرته سيدة انجليزية ثرية كانت
تروح عن نفسها فى التفكير أمامه فى زى جنية اللآلىء ، ولم تلبث
حتى استدرجته الى قصرها وتزوجته زاعمة له أنها الجنية دائما .

وهناك يأتيه نعي كاترين فيحزن ولكنه يجد السلوان في صحبة فتى خادم التحق بقصره يشبه كاترين الى حد بعيد ، غير أن السيدة الانجليزية تهجره لأنها سئمت هذا اللون من اللهو ، فيفقد صاحبنا عقله . ولكن كاترين - وهي التي تنكرت في زى الفتى الخادم - تعيده الى قريته ، وتعيد اليه رشده .

على أن بلزاك يعود سنة ١٨٢٤ الى شخصية «القرصان أرجو» ويتخذ منه بطل قصته الجديدة التي يعنونها اذ ذاك «أنيت والمجرم». وفي هذه القصة يلتقى «أرجو» بفتاة رقيقة تقيّة من الطبقة الاجتماعية الوسطى تدعى «أنيت جيرار» ، فيحبها ويتمنى أن يتوب وأن ينسى ماضيه وأن يعيش معها ، ولكنه لا يكاد يستغفر الله ويبدأ حياته الجديدة حتى يكشف القضاء شخصيته الحقيقية ، ويدينه ، فتموت زوجته أنيت حسرة عليه .

والى جانب بطل القصة الذي ظهر قبل ذلك في «قسيس الوردان» تعود الى الظهور شخصيات أخرى يتعرفها من قراء تلك القصة السابقة وهكذا سوف يبعث بلزاك أبطال «الكوميديا البشرية» ويستعيدهم بأسمائهم وخالقهم في سلسلة من الروايات المستقلة .

وتتميز في القرصان أرجو قصتان متداخلتان ، الاولى قصة حب «أرجو» لأنيت ، ودراسة تحول هذا الرجل من الشر الى الخير ، وتلك قصة نفسانية ، والاخرى قصة التحري والقضية وعصابة قطاع الطريق التي تهاجم السجن وتحارب القضاء ، وتلك قصة مغامرات وقد رأينا كيف أنشا بلزاك عدة قصص قوامها هذان العنصران . ولكن الجديد هنا هو ايثارة القصة النفسانية على قصة المغامرات ، فما يهتم «أرجو» بأمر اعتقاله الا في النطاق الذي فيه يقضى هذا الاعتقال على حبه وسعادته ، وما يهتم بالدفاع عن نفسه وانما يذعن للعقاب اذ يرى فيه بعينه الجديدة تكفيرا عما أسلف من ذنوب . أى أن حب «أرجو» لأنيت في الرواية ليس عنصرا سلبيا فحسب يتلقى الصدمات من الخارج ويتأثر بها ، بل هو حافز ايجابي يؤدي الى

نتائج معينة ويؤثر في أحداث القصة ويحدد مصير أبطالها . لقد انتقل بلزاك من قصة المغامرات التي تشمل حبيبين ، الى قصة الحب التي تشمل مغامرات . وانها خطوة كبيرة في سبيل القصة النفسانية .

ويتقدم بلزاك خطوة اخرى في هذا السبيل بكتابة روايته التالية «فان كلور أو جان الشاحبة» Wann-Chlore التي ظهرت عام ١٨٢٤ وكان يفكر في صياغتها منذ عام ١٨٢٢ . وهي قصة دوق يدعى «هوراس لاندون» يعتزل ، بعد صدمة عاطفية ، في قرية صغيرة يلقي فيها فتاة رقيقة تؤنس وحشته وتخفف لوعته فيقترب منها بعد تردد ، حتى اذا علم أن تلك التي كان يحبها أولا لم تغدر به وانما كانت ضحية مؤامرة غريبة مدبرة ضده ، استيقظ حبه واعتزم أن يفر ليستأنف بجوارها سعادته القديمة ، وانه ليتزوجها باسم مستعار ، ولكن زوجته تفلح في العثور عليه وتلتحق ببيته خادما ، فيؤدي هذا الموقف العجيب بالعاشقين الى الياس المميت .

وهنا ، تسود القصة العاطفية كل شيء ، وان لم يجد القلم الذي اعتاد استغلال عناصر القصة السوداء مفرأ من تعقيد الاحداث واختلاق مؤامرة غريبة لتبرير انفصال عاشقين .

وقد حرص بلزاك على تنشئة كل من «جوزيف» بطل «قسيس الاردين» و «أبيل» بطل «الجنية الاخيرة» بعيدا عن المجتمع وأدراجه. أما الاول فقد أنفق صباه مع تلك التي كان يظنها أخته بين مراتع الطبيعة الجميلة ، في جزيرة نائية تشبه جزيرة «بول وفرجينى» . وأما الاخير فقد وقاه أبوه شرور الحضارة اذ انتبد به وباهه منذ ولده كوخا في الريف الوديع الطاهر ، فحال بينه وبين الاختلاط بالناس ، وكذلك لقن بلزاك جنيته نقدا لاذعا لحياة البشر وماياتون من أعمال صغيرة في عالم صغير . وكان في هذا كله مقلدا لكتاب القرن الثامن عشر ، الذين نادوا ، وعلى رأسهم «روسو» ، بوجوب العودة الى الطبيعة . لأن الحضارة مفسدة للإنسان .

وينبغي ألا يفوتنا تسجيل ما أصابه بلزك في روايته الاخريتين من تقدم واضح في رسم الاشخاص . فقد أخذ الإبطال يتميزون بصفات خاصة لا يشاركون فيها أبطال القصص التقليدية الشائعة . هذه «أنيت» تشبه في وداعتها ورقتها فتيات القصص الغرامية ، واكن لها طبيعة جادة وإرادة حازمة ، وعاطفة دينية تضي على جميع حركاتها سذاجة وسموا ، وضميرا مرهفا يقودها الى مصيرها المحتوم . وهذا القرصان أرجو ، لا يواصل الثورة على المجتمع والشار من الافراد والسلطات ، وانما يتجدد بفضل الحب والدين فيأبى امام القضاء أن يكذب وأن يلقي أوزاره على كاهل سواه . ومن وراء هذه الملامح وتلك ، يبدو اتجاه بلزك الى الاستقلال الفنى ، الى تغيير القوالب المبتذلة . . فانه يعرف الآن اصول المهنة ، ويريد أن يكتب قصصا تحليلية . والقصة التحليلية تدعو الى تعمق الشخصيات قبل كل شيء . لقد انتهى طور العناية بالاحداث والمفاجآت ، وجاء طور العناية بالمشاعر والمواقف .

وقد بدأ بلزك في الوقت نفسه يصور بعض ما يرى حوله ، ويصف بعض من عرف أو بعض ما عرف في الحياة الواقعية . فهو يجعل من «أنيت جيرار» ابنة موظف باريسى صغير ، ويعرض علينا مشاهد من حياته اليومية حين يعمل في الديوان وحين يؤوب الى البيت وما من شك في أنه أسكن تلك الأسرة دارا بشارع «فيى دى تمبل» لانه هو نفسه كان يسكن مع أسرته هذا الشارع اذ ذاك . وهناك شخصية ثانوية في قصة «فان كلور» تدعى «مدام دارنوز» لابد أن الفتى الاديب استعار خليقتها من شخصية أمه التى كانت تحب السيطرة ولا تكف عن النقد والثروة . .

لقد خطا بلزك اذن خطوات ملحوظة الى الامام . أصبح يعنى أنه اتقن صناعة الحوار والوصف والسرد ، وأضحى لا يستوقفه الا تصور القصة ، وعلى أى القوائم تقوم ، وعلى أى القواعد يرتكز . كم شخصا

ولماذا ؟ وما نفسية كل منهم ؟ وكيف يتفوق الابطال على غير الابطال ؟
فان للرواية دعائم ينبغي أن يدرسها القصاص قبل أن يخط سطرًا
واحدا وهذا ما فطن اليه كاتبنا الناشئ بعد تجارب كثيرة وتدريب
شاق .

لم يكن ذلك دأبه في أول الامر . لقد أقبل على الادب يدفعه طموح
ساذج ، فتردد بين القصة والمسرح ، ثم استقر على القصة اذ وجدها
افضل وسيلة يذيع بها كتاب آراءه وفلسفته ، وهذا هو طور
«كرومويل» و «ستيني» . ثم زهده في طموحه رفيقان صحفيان جذباه
الى أن يكتب روايات غثة ، فقلد معهما النماذج الادبية الرائجة ساخرا
منها ، ثم قلد تلك النماذج بعد ذلك وحده تقليدا جديا عسى أن يحظى
بمثل رواجها ، ولكنه أخطأ الرواج واكتسب براعة الأداء ومهارة
العرض في فن القصة . واخيرا أحس أنه على الرغم من اجادته
الاخراج لا يعمق قصصه من حيث الاسس والعناصر تعميقا كافيا ،
فحاول في «القرصان أرجو» و «فان كلور» أن يسد ذلك النقص .



والآن ، بعد أن تدرب على ألوان القصص المختلفة ، وبعد أن
اتقن تصريف الوسائل الفنية ، وبعد أن قلد جميع الكتاب ، لم يبق
عليه الا أن يعرف نفسه ، وأن ينتج مادته ، وأن يصوغ هذه المادة
في افضل اطار يناسبها . هو الآن يريد أن يتلفت حوله ويسجل بعض
ما يشاهد . وها هو ذا يدرك ما الموضوعات الجديرة بقصصه . ففي
المجلد الثاني من قصة «أنيت والمجرم» ، يدخلنا مع بطليه الى الكنيسة
حيث نصفي الى العظة التي تنير للقرصان طريق الخير ، العظة البليغة
المؤثرة التي يلقيها الأب «مونديفير» على جمهور المصلين ، معددا فيها
من الخطايا المستترة والذنوب المنكرة ما يقترب الناس في كل يوم دون
رادع من خوف أو حياء ، ودون أن يندى وجه الفضيلة الجامد الذي
اتخذ من الرياء الاجتماعي نقلا صفيقا :

«انظر الى الوراء وقلب صفحات كتاب حياتك ! .. أما أنت فقد أولت نصوص القانون التأويل الذى ينفعك ، فكسبت قضية جائزة وهدمت بيت عائلة .. وأما أنت ، فقد خنت وطنك وبعثت بلادك ... وأما أنت ، فقد هجرت زوجتك بعد أن عاهدتها عهد الوفاء والشرف .. وأما أنت ، فقد اتخذت من أخطاء زوجك ذريعة تبررين بها حياتك المأجنة .. وأما أنت ، فقد أدت عينيك - ذات مساء ، حين لفظ عمك آخر أنفاسه - نحو الخزانة التى تضم وصاياها ، وأخرجت منها وصية ، كان الشيخ الغرير قد وثق فى مظاهر ولائك فتلاها عليك ، واسلمت هذه الوصية لجنوة النار .. وهذا كله لا يفض فى نظر الناس من فضيلتكم ومن شرفكم .. لقد احتال امرؤ منكم حتى أوحى الى عم شيخ بان أولاد أخيه لا يحبونه ، فأفلح ، بعد عشرين سنة ، فى اتمام حرمانهم من الميراث .. لقد رفض امرؤ منكم أن يفتح بابا للأقرباء له بالنسب .. لقد أرسل امرؤ منكم زوجته لكى تلعب بضمير القضاة ، فكانت هى التى أقامت لهم من الحجج ماضى العدل .. وأنت ، لو قد استطعت أن تقتل بنظرة منك فى بلد بعيد رجلا أوشك على الهلاك دون أن تعرف الأرض أمرك ، لكى تظهر من وراء هذه الجريمة المجهولة بثروة طائلة ، لما ترددت لحظة .. ان شرائع الأرض والأسفاه لا تنال جميع المجرمين ! .. وعلى الرغم من بشاعة هذه الجرائم ، فالناس يرتكبون مئات الفظائع الاجتماعية الخليقة بذلك الاسم !»

تلك صورة المأسى التى راحت تطوف برأس بلزأك وباتت تختتم فى ذهنه . انه يستعرض فى هذه الصفحة الموضوعات التى تدعو قلمه الى معالجتها . واذا كان بعض تشاؤمه راجعا الى اصطدامه بواقع الحياة حين نزل الى ميدان الادب المجذب واتصل بصغار الفنانين والصحفيين ، واذا كان بعض هذا التشاؤم راجعا الى قراءته «طرطوف» مولير و «خلائق» لابروير و «زاديج» فولتير وكتب مونتسكيو وديدرو وروسو ومن ذهبوا مذاهبهم ، فما من شك فى أن شيئا من هذا التشاؤم قد استقاه من حكمة المرأة التى احبها حبه الاول .

الحب الأول

«كانت مدام دي روزان فتية القلب عندما أشرفت على سن الأربعين ، هذه السن التي تكتسب فيها عواطف النساء أخسر درجات القوة ، فقد كانت تحب التأمل وتذرف الدمع أحسانا في الخفاء» .. هكذا يصف بلزاك أم «قسيس الأردين» . وأكبر الظن أنه كان يفكر حين كتب تلك السطور في شخصية امرأة حقيقية ملأت صورتها قلبه إذ ذاك ، هي مدام دي برنى ، فوصفها ، وأطلق عليها في روايته اسم الماركييزة دي روزان .

ولعله قد رأى تلك السيدة أول مرة في حفلة راقصة ، ففتنه جمالها الناضج ، ودفعته جراته الى أن يطيع قبلة مجذونة بين كتفيها البضتين ، البارزتين من ثوب السهرة ، فهكذا فعل الفتى «فليكس» مع «مدام دي مورسون» في رواية «الزنبقة في الوادي» - التي سوف يستعيد فيها بلزاك بعد انقضاء خمس عشرة سنة ذكرى غرامه الأول . ومن الطريف أن يكون هذا أيضا هو أمر «أندريه جيد» عندما كان في الخامسة من عمره ولقى ابنة خال له ذلك اللقاء الأول الذي يرويهِ في إحدى قصصه فيقول : «حين دخلت غرفة الاستقبال قالت لى أمى هيا قبل ابنة خالك .. فتقدمت وجذبتنى اليها . ولكنى لأدرى أى دوار أخذنى أمام روعة كتفها العارية ، فأتى بدلا من أن أضع شفتى على الوجنة التى مدتها لى ، مضيت الى الكتف الباهرة التى سحرتنى أعضها بأسناني مصا .

مهما يكن من صحة هذه الظواهر التي يهتم بها علماء التحليل النفسى ، فقد كانت «لور دى برنى» ، على الرغم من سنيها الأربعين ، امرأة ذات جمال ورقة ، بيضاوية الوجه بارزة الشفتين ، واسعة العينين حاملة النظرات ، كما تبدو في الصورة التي رسمها لها الفنان فان جور . وكان أبوها موسيقيا نمسويا من جنوة القصر الملكي في عهد لويس السادس عشر ، توفى وتركها وهي في ميعة الصبا ، فتزوجت أمها الفرنسية نبيلة عريقا كان أثناء الثورة من أشد الاشراف ولاء للعرش . وأما زوجها ، جبريل دى برنى ، فقد كان حين عرفه بلزك مستشارا ملكيا مريضا مهدما ، في الرابعة والخمسين من عمره ، ويقال انها لم تعرف معه الهناء منذ اقترنت به في ربيعها السادس عشر ، وراحت تبحث عن هوائها المنشود فصلت مرتين ، الأولى في مونبلييه والثانية في فيلباريزيس .

ان تلك السيدة الآن جارة لأسرة بلزك ، من بعيد ، فهي تسكن أقصى أطراف الضاحية ، مع زوجها هذا الشيخ وبنيتها الذين يبلغ أصفهم السادسة من العمر وبناتها اللاتي تبلغ كبراهن الرابعة والعشرين ، هناك في قصر ضخم أنيق يطل على حديقة غناء ولم تكن تزور آل بلزك الا لاما ، فما كان يعجبها رب البيت بأطواره الغريبة ولا كانت تعجبها ربة البيت بثرائها وهندرها . ولكن قدوم أونورية كان مفاجأة لها . فانها لم تلق قبل اليوم شبيها لهذا الفتى العريض الجبهة الساحرة العينين ، المتوقد ذكاء وحيدة وطموحا . وحدثت بصيرتها انها أمام نفس غنية ، غزيرة الموارد ، مشرقة الافاق . ولم تلبث حتى رأت في ضوء تلك النفس الباهرة انها امرأة غير راضية ، وأن الشباب ينسحب عنها ولما تعرف السعادة ، وأن في الخريف نعما عذبا قد يشفى الحنين الملح الى مباحج الربيع التي مضت ولن تعود . وباتت تموه على عاطفتها أو تموه عليها عاطفتها ، فهي تنظر الى هذا الفتى بعين وامقة وتزعم لنفسها انها لا تحب فيه غير ذكرى ولد لها عزيز فقدته ، ولو قد عاش لأصبح في مثل هذا الشباب وهذه

النضرة . وأخذت تهتم بما يعمل أونورية ، وأقبلت تجلو لأمه السادرة عنه مواهبه وامتيازه . لكند فهمته وأحبته وحننت عليه خيرا من أمه . وما أشد ما كانت حاجة أونورية الى أم غير تلك التى جفته منذ طفولته وما فتئت تؤنبه وتقصيه عنها أكثر مما تشجعه وتضممه اليها ، ما كان أشد جوعه الى الحنان والعطف ، الى قلب كبير يبثه آمال قلبه وآلامه كلما فاضت وضائق بها صدره ! كلاهما كان اذن يبحث عن الحب ، وكلاهما لقي لدى صاحبه ما يسد النقص الذى كان يحسه فى حياته الخاصة أما هى فامرأة جميلة رقيقة فى آخر الشباب ، تنشئ الرجولة قوية فتية لأن زوجها شيخ ضعيف ، وأما هو ففتى مضطرب المشاعر ، فى أول الشباب ، ينشد الأمومة والعطف والجمال فى صورتيه المعنوية والحسية .

وسرعان ما كتب اليها يعلن حبه . وهذه مسودة رسالته الأولى - فقد حفظ بلزак مسودات رسائله لمدام دي برنى ، وحفظت هى الرسائل ولكنها أمرت باحراقها يوم وفاتها . انها فاتحة ممتازة ، كفاتحة كل قصة رائعة سيدبجها قلمه فيما بعد :

« انك شقية ، أعرف هذا ، ولكن فى نفسك موارد أنت تجلبينها وما زالت تستطيع أن تربطك بالحياة . حين طلعت على ، طلعت فى هذا الجمال الذى يحوط جميع من تصدر شقوتهم عن قلبهم ، وانى لأحب المتألمين قبل أن أراهم . وهكذا كان لى حزنك سحرا وكانت لى تعاستك فتنة : ومنذ اللحظة التى بسطت فيها محاسن روحك ، تعلقت كل أفكارى على غير ارادة منى بالذكريات الحلوة التى حفظتها لك . . . هكذا أنا الآن ، وهكذا ساكون دائما ، حيا فائق الحياء ، عاشقا يدفعنى الوجد الى الهذيان ، وعفيفا الى الحد الذى لا أجرؤ معه أن أقول : انى أحبك . وان بعض هذه العفة وبعض هذا الحياء فى العاطفة لنا شىء من دواعى الخشية والخجل التى يثيرها الصد فى نفسى . ذلك أنى لم أبيل الصد قط ، اذ لم أتعرض له قط ، فأننى اليوم للمرة الأولى اخاطر بتصوير ما أجد من شعور . »

ولم تشأ مدام دى برنى أن تقبل عليه ، ولم تشأ أن تنفر منه .
لم تقل له نعم ولم تقل لا ، وإنما لاذت بالسخرية والمزاح ، وأجابته
بأنه غير جاد فيما يزعم ، وأنه خليق بأن ينساها سريعا ، فهو يبلغ
ثلاثة وعشرين عاما وهى تكبره بثلاثة وعشرين أخرى ، ولن يراها الا
وحولها أولادها . . . أما الفتى فلا يطيق صبرا : « أو ليست دعاية
قاسية هذه التى تسوقين لى ؟ ورسالتك أليست الثمرة الناضجة
لنقيصة كبيرة ؟ . . . هذا المكر النسائى ، أليس عيبا كبيرا لديك
يامن لم اكن اظنها امرأة كسائر النساء ؟ تالله لو قد كنت امرأة ،
وكان لى من العمر خمس وأربعون سنة وما زلت جميلة رفيقة ،
لاتخذت غير سيرتك . . . ياللمفضلة التى اراها ازائى فى أمر امرأة تجد
عند بدء خريفها ، أياما تعدل أيام الصيف جمالا ، امرأة ذكية الفؤاد
تقدر الدنيا كما هى فى الواقع وتابى على نفسها أن تطف التفاحة
التي ضيعت أبونا الأولين ! . . »

وتلك لغة ينقصها الذوق ، وتنقصها البراعة . وأنوريه يعترف
لمدام دى برنى فى رسالة تالية بغلطته وتخطئه ، ولكنه لا يتورع فى
الوقت نفسه عن التمدح بما يشبه النم : يصارحها بأنه أعزل من
كل وسائل الهجوم ، أعزل من لسان العاشق ورقته وحيلته ، ويمثل
لها نفسه بفتاة وديعة حيية مضطربة تخفى تحت ستار الوداعة
والحياء والاضطراب نارا آكلة خليقة بأن تعدو الرماد الذى يكتمها
وأن تمتد الى الموقد وإلى الدار فلا تبقى على شيء . . .

أظهرت « مدام دى برنى » استيائها من هذه العاطفة المتأججة ،
وأمرت أونوريه أن يمسك عن حديث الغرام ، وأن يقنع بصداقتها
وودها أن كان يعزها حقا . واتصل تلاميها وتراسلها على أساس
الصداقة والود ليس غير . بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى تحولت
الصداقة الى ألفة ، وتحول الود الى أنس فضعفت المقاومة ، وانتصر
الحب ، وشهدت أشجار الحديقة الغناء ، ذات ليلة ، أول قبلة

لهما . ثم هذا المشهد نحو الساعة العاشرة ، ثم دلفت هي الى غرفتها ، وعبر هو القرية الناعسة ، وتسلك الى مكانه من بيت الأسرة ، ويات يكتب في نشوته : « آى لور ، انما اكتب اليك والليل من حولى ساج تملؤه صورتك وتتبعنى فيه ذكرى قبلااتك العاتية ، وآى افكار عساي ان أجد ؟ لقد ذهبت بأفكارى جميعا . أجل ، لقد اتصلت نفسى كلها بنفسك ، ولن تسيرى منذ الآن الا معى . اوه ! ان سحرا عذبا يحوطنى فما ارى غير الأريكة ، ولا أحس الا ضغطك الرفيق ، وما برحت الأزهار التى أمامى ، على حفظها ذاك من الذبول ، ذات أريج مسكر . . »

ومنذ تلك الليلة بدأت المخاوف ، وبدأت الظنون ، وبدأ الحرص على ابعاد الشبهات . انهما ليحسان ان جميع العيون تراقبهما ، وان جميع نوافذ القرية ترصدهما . ولم تعد دروس الفتى لأصغر أبناء « دى برنى » علة كافية لتبرير تردده الدائم على ذلك البيت . واخيرا رأت مدام بلزاك ان تضع حدا لهذه العلاقة التى راحت الألسن تلوكها فى فيلباريزيس ، فعجلت بترحيل ولدها الى « بايو » ليستجم لدى اخته التى تزوجت واستقرت هناك .

ولم تكن تلك خاتمة القصة ، فسينزح آل بلزاك وآل دى برنى الى باريس ، وباريس تبيح لأهلها مالا تبيحه قرية صغيرة . سينمو فى العاصمة اذن ذلك الحب الذى نشأ فى الريف ، سيمتد ويشتد ، ويؤثر فى حياة بلزاك وفى أدبه آثارا عميقة .

★★★

ولعل أول هذه الآثار ما طرأ على آراء بلزاك السياسية والدينية من تحول . فقد كان قبل حبه لدام دى برنى من أنصار الثورة ومن خصوم الملكية والكنيسة ، ولكنه نشر سنة ١٨٢٤ بحثين متتاليين فى أولها Du Droit d'Aissance دفاع عن العرش وحقوق الولاية

والوراثة ، وفي الثانى Histoire impartiale des Jésuite دفاع
عن طائفة الآباء اليسوعيين . غير أن الأستاذ جويون في رسالته الصافية
عن فلسفة بلزاك السياسية والاجتماعية قد خطأ القائلين بهذا الرأى،
ودلل على أن «مدام دى برنى» لم توح الى بلزاك افكارا سياسية
أو دينية ، وإنما أوحى اليه افكارا أخلاقية إذ حددت موقفه من
الخصومة القديمة القائمة بين عاطفة الحب وتقاليده المجتمع ، فالزواج
- عند بلزاك - مخالف لشرائع الطبيعة في منعه المرأة المتزوجة من
الاستجابة لنداء قلبها ...

ومهما يكن من أمر الأثر الفكرى الذى أحدثته « مدام دى برنى»
في عقلية بلزاك ، فهناك آثارها الواضحة - التى لا ينكرها بلزاك
ولا مؤرخوه - في نواح أخرى من شخصيته .

لقد بذلت هذه السيدة جهدا كبيرا في تهذيب الفنى الأديب
وصقله . كانت تلفت نظره دائما الى ما تجرفه اليه طبيعته الفائرة
المضطربة من اخلال بقواعد اللياقة والذوق السليم ، وكانت - على
الرغم من حبها شمائله وعيوبه على السواء - تحاول في كل مناسبة
أن تقوم اوده . وهذه احدى عباراتها الصائبة له : « اسع يا عزيزى
الى أن يراك الجمهور بأنجمعه لارتفاع المكان الذى تقوم عليه ، ولا
تهب بالناس أن يعجبوا بك ! » . وبفضل دروسها ونصائحها اكتسب
بلزاك من رقة الخلق ما أتاح له أن يندمج في المجتمع الراقى ، ويفشى
أعظم « صالونات » العصر ، وأن يكتب سنة ١٨٢٠ « رسالة في الحياة
الأنثوية » التى أصبح كلنا بها .

وكانت «مدام دى برنى» فوق كل شيء خير معلم لهذا القصاص
الناشئ . كانت امرأة ناضجة القلب والعقل ، قد اجتازت محن
السياسة التى عصفت بطبقة الأشراف في الثورة الفرنسية ، وتقلبت
بين تلك الأهواء التى تتنازع نفس امرأة ، فتاة أراد الزواج أن يجعل
من شبابها شيخوخة مبكرة . ان ماضيها الحافل بالذكريات والتجارب

والعواطف والآلام لدرسة كبيرة جامعة . وكم أصغى إليها أونوريه ،
وكم اجتث أحاديثها وآراءها . لقد علمته الحياة وكشفت له أسرار
المرأة . ولولاها ما كتب قصة « الزبقة في الوادي » ، ولا عرف
السبيل إلى قلوب النساء . ولو قد أحب فتاة غريبة في ربيع العمر
لظلت تعوزه ثقافة الأديب وتربية الأديب . وسوف تمر في حيساة
بلزلك وجوه أبرع جمالا من وجه « مدام دي برنى » ، ولكن حبسه
الأول لن ينقضى ولن يموت ، بل سيمسى نجمه الهادي ، ووحيه
الخالص ، ومرفاه الأمين .

كان حبا كريما . وكانت « مدام دي برنى » أكثر من امرأة
عاشقة . كانت أول من آمن بعقريه بلزلك ، وأول من تكهن بمجده
المقبل . وباتت أشد اهتماما به من شقيقته ، وأحنى عليه من أمه .
وما من شك في أنها كانت تقول له مثل هذه الكلمات التي تقولها
مدام دي مورسوف لفليكس في « زبقة الوادي » : « ليس ما يعدل
حناني . آه ! انى أريد أن أراك سعيدا ، قويا ، مرموقا ، أنت
الذى ستكون لى كالحلم الحى » . . .



على أن قصصه التي نشرها لم تحقق هذا الحلم . لم تجلب
له المال ولم تجذب نحوه أنظار الجمهور . أين يكون النجاح إذن ؟ من
أين تأتي الثروة ومن أين يشرق المجد ؟ لقد تأكد الفتى الأديب بعد
كل ما أراق من المداد على الورق أن كتابة القصص طريق وعرة وجهد
مجدب . وها هو ذا يقبح ذهنه ويمد بصره ، ليرسم أقصر سبيل
إلى أهدافه ، فيغلبه سراب المشروعات الأدبية التجارية ، ويصح
عزمه على طبع الكتب الكلاسيكية الفرنسية ، كتب لافونتين وموليير
طبعة مركزة لدى الناشر « أو ريان كانيل » وتوزيعها لحسابه الخاص .
ولم يقف في طريقه أحد ، فان والديه اللذين استياسا من مستقبله

قد أرضاهما أن يقوم بعمل منتج وأما رأس المال فقد أمدته به مدام
دى برنى . ثم كانت الكارثة . خسر الفتى كل شيء ، وخرج من
مشروعه مدينا بخمسة عشر ألف فرنك ... ولكنه لم يهن ولم
يتخاذل ، بل راح يقدح ذهنه ويمد بصره ، فرأى النجاة في شراء
مطبعة والأشتغال بالطباعة . وهناك ، في جو المطبعة القاتم الكئيب ،
كانت « مدام دى برنى » تشرق عليه كل يوم لتؤنس وحشته وتشجذ
همته ، حاملة إليه في أكثر الأحيان وجبة من طعام لياكل ، فقد
كانت تعلم كيف يستغرقه العمل ، وكيف يصرفه عن الطعام والشراب
أياما بأكملها . ولم يمض عام ونصف عام حتى بدأ عمال المطبعة
يتدمرون ويطالبون بأجورهم المتأخرة ، وأخذ الدائنون يحاصرون
الدار ... ولكن الفتى الأديب لم يذعن للفشل الذى لاحت بوادره ،
بل مضى يقدح ذهنه ويمد بصره ، فاهتدى الى مسبك حروف معروض
 للبيع على اثر افلاس صاحبه . أوليس في شراء هذا المسبك خلاصه
مما تورط فيه ؟ لم يشك في الأمر . وساهمت معه مدام دى برنى
في هذه الصفقة الجديدة بمبلغ كبير من المال . وفي ربيع ١٨٢٨ وقع
ما لم يكن بد من وقوعه ، واضطر صاحبنا الى اعلان افلاسه . وأسرع
أبوه فسدّد جانباً من ديونه خشية أن ينقلب الدين على الأسرة ،
وعهد الى أحد الأقرباء بتصفية العمل . وكانت الخسارة فادحة ،
فقد بلغ نصيب « مدام دى برنى » منها خمسة وأربعين ألف فرنك ،
وبلغ نصيب الأسرة أربعين ألفا ، وكان هناك دائنون آخر .

هكذا وقفت مدام دى برنى الى جانب الفتى الأديب في أيامه
الحالكة ، تعينه بالحب والمال والنفوذ ، وتصحى من أجله كل شيء .
وقد عاش بلزاق يذكر فضلها عليه ويبالغ في الاعتراف بجميلها فيقول
لخلصائه انها خلقتة خلقا . وكان يحبها ويجلها ، فلم يكن يسميها
باسمها في رسائله الخاصة الى أمه أو أخته ، بل يكنيها دائما « بالآثيرة »
وقد ظلت شخصية الآثيرة هذه سرا غامضا مجهولا حتى تولى باحثان

من رجال الأدب الفرنسى هما « جبريل هانوتو وجبريل فيكر »
دراسة تلك الفترة المغمورة من حياة بلزاك بين عامى ١٨٢٥ و ١٨٢٨ ،
فعثرا - بعد نصف قرن من وفاته - على وثيقة ثمينة أزاحت ذلك
الستار الكثيف ، وجلت شخصية « مدام دى برنى » ، وألقت نورا
ساطعا على كثير من صفحات « الكوميديا البشرية » . ولم تكن تلك
الوثيقة سوى عقد الشركة التى تألفت بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٨٢٨
« بين الموقعين أدناه جان فرنسوا لوران سالك الحروف المطبعة
طرف أول وأنوريه بلزاك طرف ثان وأيضا مدام لويز - انطوانيت -
لورهيئر ، بالتوكيل عن ماسيو اتيين - شبارل - جبريل دى برنى
زوجها ، المستشار الملكى ... » . ومنذ تلك اللحظة وقف مؤرخو
بلزاك على حقيقة طور هام من أطوار نشاته ، واستطاعوا أن يتتبعوا
فصول حبه الأول .

نحو المجد

انه يبلغ من العمر تسعة وعشرين عاما ، وتبلغ ديونه مائة ألف فرنك . وذلك عبء فادح قد ينوء به كاهل عملاق شديد . ولكن الكارثة لم تهد عزمه ، بل ألهمت نشاطه ودفعته الى انتاج خصب . لم يعبس ولم يأسف ، لم يسخط على نفسه ولم يحقد على القدر ، وإنما قال إنه لا يصلح لطبع الورق وسبك الحرف كما لم يصاح من قبل لانشاء المسرحيات . ولعله رأى ، وقد ثقفه الكفاح العنيف والحب المضطرم والفشل تلو الفشل ، أنه الآن خليق بأن يكتب قصصا ناضجة تصور فيها الحياة بحلوها ومرها أصدق تصوير .

هاهو ذا يفر من المحنة القاسية الى أقصى أطراف باريس ، حيث يستأجر دارا ظليلة تحوطها المزارع المترامية ، وتطل نوافذها على الخسلاء والافق العريض . ويؤثث داره الجديد أثاثا مترفا ، فيخلع الطنافس الباذخة على أرض غرفته ، ويحلى الحائط أمامه بساعة مرمرية ثمينة . ويشترى في الوقت نفسه مجموعة رائعة من الملابس الفاخرة . وعيشتا تلومه أسرته على هذا الاسراف الجنونى ، فقد كان يريد أن يتأهب للقاء المجد . ولم يكد يستقر حتى أرسل الى اخته طالبا أن تبتكر له ستارتين زرقاوين مطرزتين باللون الأسود، قائلا لها : ((فانى عندما أسدلهما ، لن أستطيع أن أكتب شيئا رديئا)).

ولما كان القراء اذ ذاك يتهافتون على القصص التاريخية ، فقد

رغب أديبنا بعد أن أخفق منذ سبع سنين في قصتيه التاريخيتين « واردة بيراج » و « اليهودى الوسيم » ، أن يؤلف قصة من ذلك اللون بعينه على أن يكفل لها عناصر النجاح . وأكب على دراسة المذكرات المكتوبة عن نصف القرن السابق ، فاهتدى الى موضوع قصة طريفة في تاريخ حرب « الشوان » تلك التي واصل الملكيون في شمال فرنسا شنّها على الحكومات التي أعقبتها الثورة حتى تولى نابليون العرش . ولكنه أحس أن معلومات الكتب لا تكفيه ، وأن لهذه القصة أطارا خاصا ينبغي أن يجتليه في بيئة هذه الأقاليم الشمالية ، وطبيعة أرضها ، وعادات أهلها . أحس حاجته الى أن يرى بعينه المشاهد التي يزعم أن يصفها وأن يسمع بأذنيه لغة القوم ، وأن يلمس بنفسه حقيقة نفوسهم . وتذكر أن « الجنرال دي بوميرول » ، أحد أصدقاء والده ، يقطن بلدة « فوجير » فكتب اليه ، ورحب الجنرال بمقدمه أجمل ترحيب .

وهناك مضى الفتى الأديب يضرب في أحياء المدينة العتيقة ، يستطلع آثارها ومعالمها ، ثم يعمد في الضياع المجاورة حيث يختلط بالفلاحين في حقولهم وبيوتهم ، حتى إذا سجل في أوراقه جميع ما لاحظ من شخصيات الحياة الإقليمية الأصيلة ، انقلب الى غرفته في دار مضيفه ، وبسط مذكراته يستقيها ويكتب . ولا يفادر مائدته الا ريشما يتناول الطعام مع أهل البيت . على أنه قد أنباهم أنه مملق من المال ، وأنه لن يوفيه أجرا أقامته لديهم الا قصصا يرويها لهم كل مساء ، فكان بعد العشاء - برا بوعدة - يفتتح قصته في أغلب الأحيان مخاطبا مضيفه : « لا بد أنك عرفت أيها الجنرال في مدينة كذا أسرة فلان ... اذن فاعلم أن هذه الاسرة قد باتت غيب رحيلك مسرحا لأساة يجهلها الكثيرون ... » ويسترسل في حديثه على هذا النحو فيخلب جلساءه بحرارة القائه وصدق تصويره للواقع . ولا يكاد يفرغ من قصته حتى يسأله الجنرال في لهفة :

— احقا حدث هذا ؟

— لم يحدث منه شيء . وانما هي قصة تمثلتها . أوليس انشاء القصص عملا جميلا ؟ أن هؤلاء الناس يحيون ويحبون ويتألمون ، في راسي ، واذا شاء الله أن يمد لي حبل العمر فسوف انسق هذا كله في كتب رائعة . . سوف ترى ياسيدي ! . . .

وبعد أشهر خمسة ظهرت قصة «الشوان» : إنها الثورة تتاجج نيرانها بمقاطعة البريتاني ، والملكيون الثائرون يحاولون اضرامها في المقاطعات المجاورة ، وعلى رأسهم فتى مغوار كريم متحمس هو «الماركيز دى مونتوران» . بيد أن «فوشيه» لاتعوزه الحيلة للايقاع بهدوه ، فقد أفرى فتاة من ممثلات الاوبرا تدعى «مدموازيل دى فرنوى» بأن تستدرج ذلك الفتى العاطفى وتسلمه مقابل ثلاثمائة ألف فرنك وتلقاه الفتاة على سفر ، متنكرا ، في فندق صغير مع عشيقة له تدعى مدام «دى جوا» هو يزعم للناس انها أمه ، فتحول دون أن يعتقله رجالها لانه راقها ولاتها مالت اليه . ويعرض الفتى عليها الضيافة في قصر عتيق ، حيث يجتمع زعماء الثورة لاتخاذ خططهم . وهناك يكشف القوم انها جاسوسة عليهم ، فيفتكون برجالها ويعذبونها . ويغضب مونتوران ، غير أن الحب الذى اشعلته في قلبه يشل يده عن تأديبها ، فيتركها لنقمة مدام دى جوا التى باتت تنهشها الغيرة . وبعد جهاد عنيف ، تستطيع الفتاة أن تبلغ مدينة «فوجير» ، حاقدة تريد أن تنتقم . ويتوقع أصحاب فوشيه أنها لن تشفى غلتها الا بتسليم مونتوران لهم ، أما هي فترى أن انتقامها لنفسها لا يكون الا باستردادها قلب ذلك الفتى الذى أصبحت تحبه ، وأصبح يبادلها الحب وانها لتقتحم الاهوال حتى تصل الى مقره ، فتشرح له موقفها ، ويتصافيان . ويزعم الفتى أن يرحل اليها في نفس الليلة ليعقدا زواجهما . ولكن خبيثا من أصحاب

فوشيه يسقط في يدها رسالة مختلفة تنبئها ان ذلك الزواج شرك منصوب ليس غير ، فتثور ، ويعميها الغضب ، وتعلن لرجال حزبها الموعد الذى ضربه لها «مونتوران» كى يعتقلوه متى حضر . ومع الليل يقبل الفتى وبصحبه القسيس ليعقد عليها . فتدرك أنها باتت ضحية خديعة دنيئة . ويتم العقد ، ويطلع الصبح على العروسين وهما مثخان بما أصابهما من جراح فى محاولتهما الفرار .

أطلق بلزلك فى هذه القصة طاقة الخلق التى كانت تضطرم فى نفسه منذ سنوات عشر . كان يريد أن يكتب قصة غرام ، وهى ذى قصة غرام . وكان يحب المغامرات العنيفة ، وهاهوذا بطل مغامر يلقي حتفه فى سبيل لقاء فائتته كامير من أمراء «ألف ليلة وليلة» . وكان كلغا بالوصف ، فوجد فى البريتانى حلقة الدجى ، وسحر الفجر ، وروعة الغروب ، وأيام الضباب المقنعة وكان يطمح الى أن يفلسف المجتمع ويصور النفوس ، فلقى فى الحزبين المتحاربين ماكان ينشده من اختلاف الطبائع ، ورسم صورة قوية بارزة لأشخاص الرواية .

كانت «الشوان» قصة موفقة . انها انتصار الشباب فى الحياة الفنية لأديب ناشئ . وهى أول كتاب رضى بلزلك بأن يضع عليه اسمه الحقيقى . وقد راجت «الشوان» بعض الرواج ، لا الرواج الجدير بكتاب جيد ، بل الرواج المحدود الذى لن يستطيع كاتب صغير أن يصيب أبعد منه لدى الجمهور مهما أبدع . وما أصدق قول لابروير : أن يذيع صيت كتاب ، ضئيلة قيمته ، هزيلة مادته ، سقيم ، بفضل اسم كاتبه الذى نبه واشتهر من قبل ، أيسر من أن يذيع صيت الكاتب ، وهو بعد ناشئ ، بفضل كتاب ينشره كاملة قيمته ، غزيرة مادته ، سليم » ، ولكن هذا النجاح الأول مهسد الطريق للنجاح الكبير الذى أحرزه فى نفس السنة كتابه التالى

ولم يكن كتابه التالى قصة ، ولم يكن نجاحه العجيب راجعاً

الى قيمته الفنية فى شىء . انه كتاب يمزج الفكاهة الساخرة بالجد العميق ، ويضيف المرح الماكن الى التحليل الدقيق ، فى موضوع مثير ، قريب من نفس كل امرأة وكل رجل ، وباطالما أغرى الكتاب بالكتابة وأغرى القراء بالقراءة ، ألا وهو موضوع الزواج . وهل أطرف من هذا العنوان : « علم وظائف أعضاء الزواج » ؟

ذلك أن يلزأك قد تدرب على كتابة فنون أخرى غير القصة ، منذ اتصل فى عام ١٨٢٣ بفتى صحافى يدعى « هوراس ريسون » . وكان « ريسون » هذا تاجرا ماهرا من تجار الأدب ، يعرف كيف يفيد من البدع العابرة ، وكيف يستغل نزوات الجمهور ، فكان يكتب ويستكتب وينشر تلك المجموعات التى ابتكرها واطلق عليها عنوان « القوانين » ، وهى كراسات صغيرة تولى أن يقدم فيها للقراء ما يهمهم أن يعرفوه من قواعد الحياة الاجتماعية فى كل فرع من فروعها ، كآداب الزيارة وآداب المخاطبة وآداب الملبس ونحو ذلك ، فى فقرات و « مواد » موجزة على نسق قوانين القضاء ولوائح المحاكم . . وقد جراه بلزأك وعاوناه فى تلك الصناعة التماسنا للرزق ، ولكنه اكتسب فى ممارستها صفات جديدة من حدة الملاحظة ودقة التحليل وطرافة التعبير ، والاتجاه الى نقد المجتمع وترميم أسسه . وثبت خطاه فى هذا الطريق أعجابه بنظرية الكاتب السويسرى لافاتير (Lavatér) التى أودعها كتابة الشهير « فن معرفة الناس من هيئتهم » . فقد راح بلزأك يطبق مبادئ هذه النظرية من حوله تطبيقا يكشف له وراء خلجات الوجه وحركات الأطراف حوافز الفكر والشعور التى تدفع كل امرئ فى مضطرب الحياة . . ومن هنا كانت مقالاته المطبوعة فى « فن تسديد الديون . . . دون دفع مليم واحد » و « فن عقد رباط العنق » و « نظرية المشية » و « دراسة الاخلاق من القفزات » . . . وكان ينتهى دائما الى أن جميع مظاهر المرء تنم عن حظه من الثراء أو الفقر ، واسلوب

اقتناصه الثراء أو علة استسلامه للفقر ، فإن المال هو سر أسرار المجتمع ...

والحب لا يقل في المجتمع خطرا عن المال ، وقد أعيد بلزاک « علم وظائف أعضاء الزواج » في عام ١٨٢٤ ، ولكنه لم ينشره إلا بعد أن نقحه وأضاف إليه طوال السنين الخمس التالية . والكتاب نقد مرح لقصة الزواج التي كان ينبغي أن يقوم بتمثيلها بطسان فقط ومع ذلك فلم يكن بد من أن يمثلها ثلاثة أبطال منذ دخلت الحياة بيننا آدم وأما حواء في جنة عدن . ولئن كانت السخرية طابع هذا الكتاب ، فقد أراد بلزاک أن يعرض فيه غير هازل آراءه ازاء اصطدام السعادة الشخصية بمصلحة المجتمع ، وموقفه من افتئات القوانين الوضعية على شريعة الطبيعة والقلب الانساني .

وقد راينا في قصص ادينا العزب من « ستيني » الى « فان كلور » أنه يناصر الحب ويخاصم الزواج ، وراينا كيف ايدت صلته بمدام دي برنى نظراته في تلك المشكلة . وهنا ، لا يقف بلزاک عند التهكم السلبي الهدام ، بل يقترح للمشكلة علاجا ايجابيا ، فيطالب باجازه الطلاق . ولكن الطلاق ليس علاجا وانما هو وسيلة لفصم عرى الزواج الفاسد ، ودليل ضمنى على فساد الزواج ، وهذا الفساد الذى لا سبيل الى برئه الا أن يسعى الزوج دائما الى اكتساب حب زوجته والاحتفاظ به . لأن المرأة لاتخون رجلها الا بحثا عن السعادة التي هو لا يمنحها اياها لدى من قد تظنه خليقا بأن يمنحها اياها ، فالرجل الاثر والرجل السادر والرجل الضعيف الشخصية هم المسئولون اذن عن هفوات النساء . كما أن نظام تعليم البنات ، القائم على حشو الذهن وكبت العاطفة ، مسئول عن تخريجهن غريرات جاهلات بحقائق الحياة ومزalcها . ولذلك يدعو بلزاک الى اطلاق الحرية للفتيات ، حتى تكتسب نفوسهن وقلوبهن المعرفة والذكاء ، وفن المخالطة والمعاشرة ، قائلا انه أشرف للمرأة أن تخطيء وهي فتاة من أن تخطيء وهي زوجة .

ومهما يكن من شيء ، فقد فتح هذا الكتاب أبواب المجتمع الراقى للفتى الأديب ، وكانت مغلقة دونه من قبل . وهل كان له أن يطرقها وهو من أبناء الطبقة الوسطى ، وروابط أسرته لم تكن تمتد الى أبعد من طبقة التجار والموظفين بباريس ، وطبقة صغار الأشراف بالريف ؟ من الحق أن « مدام دي برنى » كانت تستطيع أن تشق له طريقا الى « صالونات » العاصمة ، ولكنها لم تفعل ، لأنها كانت تحبه ، أى تغار عليه ، وتتشبث به ، وتفرق من أن تراه على صلة بمن يصفرنها سنا أو يفضلنها جمالا وجاها . زد على ذلك أنه كان فقيرا يجاهد لتسديد ديونه ، وأنه كان مغمورا لم تكد الالسننة تردد اسمه الا عقب ظهور قصة « الشوان » . أما اليوم ، فالناس يتخاطفون كتابه الأخير ، ويقرءونه فى شغف ، ويتهامسون عنه فيما بينهم ، وكم من ربيبة قصر أو سليلة مجد طالعت ، والحمرة تصبغ وجهها ، أسرار قلبها المضطرب فى تلك الصفحات الدقيقة العميقة اللاذعة ، فتألفت الى أن ترى كاتبها ، وتناقشه ، أو تسأله أن يشير عليها .

وهكذا ، فى نهاية عام ١٨٢٩ ، دلف بلزاك الى صالون «صوفى جاى» وصالون «مدام هاملان» ، أعظم منتديات العصر فى باريس ، بصحبة صديقه الأديب لاتوش ، وصديقه الصحفى جيراردان .

ويوم دخل ، بقيادة «الدوقة داربانتيس» ، صالون «مدام ركاميه» الذائع الصيت ، يوم رأى ، بعد عشر سنوات من الكفاح المضنى والخمول الثقيل ، أنه يبرز ويعلو ، أنه يخرج الى النور ويدنو من الهدف ، وأن أضواء المجه الاولى تسطع على وجهه ، أخذته فرحة كبيرة ونشوة عاتية ، عجب لها القوم من حوله . وهناك عرف مع نعيم اللذة فضاضة الشقاء ، فقد سعدت نفسه الطامحة بتباشير

الظفر ، ولكن شعوره المرفف آدمته نظرات الكبار الملبسه ، وابتساماتهم
لحركاته ، وتعليقاتهم على أحاديثه . وحفظ في نفسه تلك الاحاسيس
ليصفها في رواياته المقبلة ، ، وانطلق كالشائر المحموم يفرز معاقل الجاه
والشرا. والمتعة التي طالما بات يحلم بها وطالما استعصت
عليه .

الأجنبية

سرعان ما تبوأ بلزاك مكانه المرموق في باريس . لقد امتلأت وجنتاه الفائرتان ، والتمعت عيناه الذهبيتان ، وأشرق وجهه الكالح ، وغلظ قوامه المهزول ، واسترسل شعره الاسود الفزير على رأسه فكانه معرفة الأسد ، وأصبح من ذوى العربات والجياد والخدم . وراى الدنيا تبسم له ، والنساء تقبل عليه ، فأمعن في الترف والاثافة ، وأمسى أولئك الذين ضحكوا من خطواته الاولى في المنتديات الراقية يرمقونه اعجابا ، ويقتبسون منه فن الظهور . واندفع الى الحياة جسورا فائرا ، ينتج ويروع ، ويغامر وينجح ، ويعيش في الواقع قصة أطرف من قصص أبطاله .

كان قد عرف في «فرساي» - حيث أصبحت تقيم أخته «الورا» - دوقة أرملة أخنى عليها الدهر بعد أن أغدق عليها المجد في عهد نابليون وامبراطوريته ، هي « مدام داربانتييس » . وكانت تناهز الأربعين من العمر ولكنها ما برحت تدل في مشيتها بثوبها الجرار ، وتتعالى في جلستها اذ تعتمد بمرفقيها على مسندى كرسيها وتلهو بتشبيك أصابعها . ويتلخص ماضيها في زواجها من الجنرال (جونو) الذي كان محافظ باريس ومن رجال السلك السياسى الفرنسى ، ثم في قصة غرامها بسفير النمسا (مترنيخ) انتقاما من زوجها هذا الذى هجرها الى الاميرة (كارولين) شقيقة نابليون ، ثم في علاقتها الخاصة بنابليون صبيا وضابطا وامبراطورا . ولم يكن المعاش الذى قرره لها الحكومة

يكفل حاجتها الى ما اعتادت في شسبابها من ترف ، فراحت تكتب القصص وتبيعها . وما من شك في أن اعجاب بلزاك الشديد بنابليون هو الذى دفعه الى الاعجاب بهذه المرأة الذابلة . وما من شك في أنها طربت بهذا الاعجاب ، وأن قلبها قد حقق له خفقات كبيرة . ولعل الديون المتراكمة على كل منهما كانت رابطة أخرى تجمعهما وتؤلف بين نفسيهما فبات هذا الفتى يقبل عليه المجد حثيث الخطى الى جانب هذه المرأة التى يدبر عنها المجد حثيث الخطى ، يتناحيان بتذاكر نعيم الحياة وبؤسها ، واوهام الحياة وحقاتقها . وقدم لها بلزاك قلبه وقلمه ، فعاونها على انشاء قصصها ، وروج لهذه القصص فى احدى المجلات الادبية ، واقترح عليها أن تكتب ذكرياتها فى ثمانية عشر مجلدا لناشر ينقدها عن كل مجلد ثلاثة آلاف فرنك . ومع ذلك فقد ماتت سنة ١٨٣٨ دون أن تسدد لصيدليها ثمن ما تعاطت من افیون . ولم تطل علاقة بلزاك بها لأنها لم تكن من الصبا والجله بحيث تستأثر به . والحق انه لم يحبها الا بخياله ، خيال القصاص الذى كانت تغريه الیسدان اللتان صافحتا الامبراطور بأن يلثمهما ، وتغريه الشفتان اللتين قبلهما الامبراطور بأن يقبلهما . على أن مرور هذه الدوقة الخاطف فى حياة بلزاك قد خلف فى أدبه آثارا جلية ، فانه مدين لها بمعرفة أسرار حكومة الادارة وعهد نابليون ، كما هو مدين لمدام دى برنى بمعرفة اسرار قصر فرسای فى أواخر عهد لويس السادس عشر .

وواصل بلزاك مطاردة المجد ، فاسرف فى اللهو واسرف فى العمل واسرف فى الاستدانة واسرف فى ابرام العقوة مع الناشرين . وفى سنة ١٨٣١ حاولت أمه أن تزوجه لكى يستقر ويستريح من حياته المائجة ، ولكنها لم توفق . رشحت له أولا «اليونور دى ترومبى» سليله بيت من بيوت الاشراف فى باريس ، وكان أونوريه اذ ذاك يصبو الى أن يصبح نائبا فى مجلس النواب ، فم أن آل ترومبى المحافظين استاءوا من آرائه السياسية التى كانت اقرب الى الحرية والثورة فرفضوه صهرا لهم . ثم أيدته فى مشروع خطبة البارونة «كلير ديربروك» ، وهى أرملة

فتاة قدمه اليها بعض الاصدقاء ، ولولا القضية التي استبقتها طويلا في «نانت» لثم زواجه بها ..

وهنا يحق لنا أن نلقى نظرة على رسائل «مدام دي برنى» الى «اونوريه» ، انها تفيض في هذه الفترة بالقلق كلما اقترب خطر زواجه ، وتفيض بالأمل كلما ابتعد ذلك الخطر . تقول له في ٢١ يونية سنة ١٨٣٢ : «هاندى ، لكى اطرء خواطر قاسية ، استعيد تلاوة بعض العبارات الحبيبة من رسائلك ، وأرجو أن اتخذ من قلبك قبرا لى قبل أن يتول الى امرأة سوى ...» وفي ٢٩ يونية : «لقد اطمأنت نفسى بعض الشيء ، وخاصة لأن السيدة قد رحلت ، ليربطها القدر حيث هى ، كى تكتمل الطمانينة ، وليكبل الشيطان جميع النساء اللواتى يتدخلن فيما ليس يعنيهن ..»

واكبر الظن أن «السيدة» التي اثارت مخاوف «مدام دي برنى» واشفاقها لم تكن الا البارونة ديربروك . ولكن الذى لاشك فيه هو أن قصة «المرأة المهجورة» التي أخذ بلزاقه في كتابتها بعد بضعة أسابيع ، لم تكن الا تحية خالصة لحبه الاول . ما أشبه الفتى «جاستون» بطل القصة ، اذ جرؤ على اللغو من «مدام دي بوسيان» فى صالونها ، بالفتى «اونوريه» حين جرؤ على الاتصال بمدام دي برنى فى فيليباريزيس ! وانها هى بعينها ، هى التي تعيش فى عزلتها ، ومن حولها اولادها ، والى جوارها زوجها الذى لا يفهمها ، هى بواقعها الغرامية الاولى ، وانطوائها على نفسها ، واعتذارها عن حب الفتى بفارق السن بينهما ، ثم باستجاباتها لنداء السعادة الاخيرة فى حياتها التعسة . وبعد أن ينفق العاشقان عشر سنين فى حب صاف رفيع يعلو - بفضل جمالها الممتاز وبفضل شبابه الممتاز - على تقاليد المجتمع الصغيرة ، اذا هما فى موقف طبيعى وباطل معا بقدر ما كان موقفهما الذى ظلا عليه منذ بدء تلك القصة ، لا لأن الموت يزهد فى القضاء على الزوج الشيخ فحسب ، بل لأن الحياة بفسادها تدب الى الحب وتفرق الشمل . وهاهى ذى

أم جاستون تسعى الى انتشاله من «إباحيته» ، وتدفعه الى الفضيلة ، فتزوجه فتاة «مستقيمة» جامدة ، سرعان ما يضيق الفتى بفتورالعيش معها فيحاول أن يعود الى سعادته القديمة وغسرامه الاول ، ولكن صاحبته تأبى وتصدده بنفس الكرامة الرفيعة التي سمت بحبهما فوق تقاليد المجتمع ، وهناك يثوب جاستون الى بيته ويشتجر . .

ولم ينتجر بلزلك . . بيد أنه ، في الوقت الذي كان يدبج فيه هذه التحية المؤثرة لمدام دي برنى ، ويتراجع أمام قيود الزواج ، مضى يلتبس في غرام جديد ارضاء حسه المضطرب وطموحه الوائب ، فكانت مفامرة الاليمة مع مدام دي كاستر . .

بدأت تلك المفامرة بداية قصصية رائعة . الأديب جالس الى مكتبه ، والبريد يحمل اليه سيلا من رسائل قرائه ، فيفضها واحدة بعد واحدة ، حتى تستوقفه رسالة دقيقة موقعة باسم انجليزى مستعار ولكنها تنم عن قلب امرأة مرهفة الشعور ، ذكية الخاطر ، كريمة المحتد . ولتوه يجيبها برسالة طويلة ، يدافع فيها عن ادبه ، ويشرح لها حقيقة ما قصد اليه في «علم وظائف أعضاء الزواج» وفي «القصص الفلسفية» التي نشرها أخيرا ، ثم يتجه بحديثه اتجاهها عاطفيا ، فيشكر لها رسالتها العامة بالتأثر الوجداني الصادق ، قائلا لها أنها تخطيء اذا تمثاته في غير صورته فإنه يعيش «معتزلا ، معتذرا بالفكر ، غيورا على أن تفهمه النساء» . ولم يمض وقت طويل حتى انكشف القناع ، وظهرت من ورائه «الماركييزة دي كاستر» ، تلك الشقراء الفاتنة التي ما بدت في حفلة راقصة وقد ضفرت شعرها الذهبي على رأسها الأثيق الا بهتت الانوار أمام حسنها الوضاء . .

دنته الى زيارتها فلبى الدعوة . وتوالت دعواتها وتوالت زياراته ونشأت بينهما صداقة عذبة ، ثم ألفة حلوة ، ثم كان الحب . وكان بلزلك يطمح الى أن تكون له هذه المرأة ، بجمالها ، وصحبها ، وأناقته ، ونفوذه السياسي لاسيما وقد انفصل زوجها عنها منذ

بضع سنين على أثر علاقتها بالأمير فكتور دي مترنيخ الذى مات بعد أن خلف لها ولدا . اذن فقد كانت طليقة من قيود المجتمع ، وذلك ما شجع أديبنا على الايفال فى مغامرته .

ولكنه آثر أن يرجىء هجومه ريثما يستعد للمعركة ، ورثما يكتب قصته الفلسفية الجديدة «لوى لامبير» . وكان فى حاجة الى الروح والسكينة ، فرحل فى يولييه سنة ١٨٣٢ الى أنجوليم ، ونزل لدى صديقته الكريمة «زولما كارو» التى كانت قد عرفت بها أخته لور وكانت «زولما كارو» سيدة ممتازة ، مثقفة ، فاضلة ، شقية فى حياتها الزوجية ، مدعنة مع ذلك للقدر ، لاتكاد تبث شكوى قلبها المرهف من بلادة زوجها الضابط المتقاعد الا لصديق حميم كاونوريه . وكان اونوريه خير من يفهم آلامها وحزنها . . ولعله أراد فى هذه المرة أيضا أن تكون هذه المرأة أكثر من صديقة له . ما الذى دار بينهما أثناء ذلك الشهر من شهور الصيف ؟ لا يستطيع أحد أن يجزم بما كان . وأكبر الظن أنها أبت عليه أن يتجاوز معها حدود الصداقة والود ، فتركها فى ٢٢ اغسطس ليحقق بصاحبته «المباركيزة دى كاسستر» فى «ايكس ليبان» . ومن هناك كتب اليها رسالة ملتهبة يسألها : «لماذا أرسلتني الى ايكس ؟ . . .» فكانت جوابها هذه الوثيقة التى تصور نفس امرأة يتنازعها الحب والاسى ، وتنهشها الفسيرة والكبرياء : «لماذا أرسلتك الى ايكس يا اونوريه ؟ لأن هناك فقط كان يوجد ما يلزمك . انك تريد امرأة شاردة الاوضاع ، متغيرة الصور ، فائنة الاساليب ، هى أصدق مثل التالق والتدالى ، ثم تتمنى أن تجد داخل تلك الغلالة الحزيرية اللساء نفسا رحيبة غنية . هذا لن يكون . . انك فى «ايكس» لانك فى حاجة الى امرأة وأنا لست بامرأة ، ولأن الحرمان من كل علاقة قلبية خالصة بجنسى قد جعلك تحب الجنس بأسره ، وأنا أرفع من أن أصطفى تحت سلطان مثل هذه الحاجة . لقد رجوت أن تؤثر على باذكاء أملى فى فردوس مجهول . . أو لم تحس أنني فخورة بأنى لم أدخله ؟ . . تقول أنني أحب اللثة ومع ذلك أقاومها ، فهل تحس

بكل ما في قولك هذا . . بل وأي جنون هذا الذي دفعك إلى التفكير في؟
اني لم أجرو أن أقول لك هذا كله في محضرك ، ولم أكن من القسوة
أيضا بحيث أقوله . . «

ولم يجد أونوريه في ايكس فردوسه المفقود . فقد خلا لمدام دي
كاستر أن تلهو بقلبه ، تغريه يوما ، وتصده يوما ، ولا تطفئ أمسه
أبدا . وقد دعتة الى أن يرافقها في رحلتها الى ايطاليا مع خالها
«الدوق دي فيتزجام» ، زعيم الحزب الملكي ، فقبل دعوتها مستبشرا
لعله أن يجد في ربوع ايطاليا فردوسه المفقود . ونزلوا جنيف ، ولايكاد
أحد يعلم ما الذي جرى بين بلزاك ومدام دي كاستر في تلك المدينة ،
ما الذي بتر علاقتهما فجأة فعاد هو الى باريس بينما واصلت هي
سفرها الى ايطاليا . ولكن المحقق أن بلزاك أب جريحا محزونا ياكله
الحقد والكمد .

أما جرحه العميق فقد وصفه في قصة «طبيب الريف» التي انكب
على انشائها في تلك الايام وكتب على غلافها «للقلوب الجريحة الظل
والسكون» . وطبيب الريف هذا رجل أصيب في حياته العاطفية . إذ
تزوجت فتاة أحلامه بسواه ، فزهد في الحياة الدنيا ، ووقف أيامه
على فعل الخير بين أهل قرية صغيرة حتى نجح في انتشالهم من براثن
الجهل والفقر والمرض .

وأما حقد المير فقد صبه في قصة أخرى ظهر جزء منها في إحدى
المجلات سنة ١٨٣٣ بعنوان «الاتمس الفاس» ، وظهرت كاملة سنة ١٨٣٤
بعنوان «الدوقة دي لانجيه» . والدوقة دي لانجيه امرأة متحالية ،
ملكة من ملكات الصالونات في باريس ، خلبت لب «الجنرال دي مونريفو»
ولكنها ظلت تتلاعب به ، تمد به تارة نظرة اغراء وتلقى عليه تارة أخرى
بسمة ازدراء ، الى أن ضاق الرجل بمكانها منه . وذات ليلة ، عقب
خروجها من حفلة ساهرة ، استغلت عربتها وظنت أنها بلغت دارها ،

وما كادت تلمح أنها تصعد درجات غير درج بيتها ، حتى باغتها رجال أشداء فكمموا وجهها وقيدوا يديها وقدميها . ولم تفق إلا على صوت «مونريفو» وهو يأمر رجاله بأن يحموا الحديد ليسموا جبينها كما كان يوسم المذنبون المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة . بيد أنها نظرت إليه فرأت دمعين تنحدران على خديه ، وهناك عفا عنها . وعبثا راحت بعد ذلك تدعوه إليها ، وتلح في دعائها ، فكتبت له رسالة أخيرة تحدد فيها ساعة ان لم يتركها قبل أن تحين فلن يعثر لها مهما نقب على أثره . وذهب في الموعد المضروب فلم يجدها ، لان ساعته كانت تؤخر التوقيت . وبعد أن بحث عنها خمس سنين ، وجدها - أثناء الحملة الفرنسية على اسبانيا - راهبة في دير . وعندما أعد عدته لاختطافها ، كانت قد فارقت الحياة .

هكذا تخيل بلزاك أن يؤدب «الماركييزة دي كاستر» . ولكنه حل خلال قصته أعمق تحليل نفس المرأة اللعوب ، حيث تمتزج نزوة الفريزة وحيلة العقل ، نفس المرأة التي تريد أن ترى الى أى مدى يستطيع الرجل ان يحتمل الهوان في سبيلها ، وتخفى تحت قناع الكبرياء حاجتها الى الخضوع ليد قوية ، وتظل تواصل حربها تلك حتى تنتصر ، فإذا نصرتها هزيمة لا تغىء عليها غير الضيق والسامة ، وإذا هي تصبح - كما يقول بلزاك - «أمة منتشية بوسوسة اغلالها» . .

على أن القدر كان يدخر لبلزاك ثارا أروع من قصته تلك الرائعة فستشهد سويسرا في خريف ١٨٣٣ فرحته الكبرى بقاء «الاجنبية» ، كما شهدت في خريف ١٨٣٣ حزنه وانكساره أمام الماركييزة الشقراء .

و «الاجنبية» قصة طويلة في حياة بلزاك ، بدأت في ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٢ ، يوم تلقى رسالتها الاولى ، وستستمر الى يوم وفاته بعد ثمانية عشر عاما . ولقد كان بريد بلزاك حافلا دائما برسائل قارئاته المعجبات ، ولكن تلك الرسالة التي وصلتته على عنوان ناشره جوسلان استرعت انتباهه لطول ما قطعت من طريق ، فهي تحمل طابع

«أوديسا» ، وكاتبته توقعها باسم «الأجنبية» . ولم يجب بلزك على تلك الرسالة القريبة ، فقد كانت الماركييزة الشقراء تملك قلبه اذ ذاك ، وكان منصرفا عن جميع النساء اليها وحدها ..

وفي ٧ نوفمبر جاءته رسالة ثانية من «الأجنبية» تقول فيها :
« لقد اهتز قلبي وأنا أقرا كتبك ، فانك تنصف المرأة وترفعها الى مرتبة الكرامة التي تليق بها ، واني لمعجبة بارهاف الشعور هذا الرائع الذي أتاح لك أن تحدثس ذلك ، لابد أنك محب محبوب ... »
وكان يقضي أيام نقاهته العاطفية ، عقب صدور ليلاه الشقراء ، لدى أثرته « مدام دي برنى » الأم الروم التي كانت خير من يواسى هذا الطفل الكبير . ولم يكذ يقرأ هذه الرسالة حتى شبت في قلبه جذوة جديدة ، فكتب الى تلك « الأجنبية » يبثها همه ويصور لها عمله المصنى وقلبه النقى الرقيق قائلا : « اذا تفضلت بأن تعذرى جنون قلب فتى وخيال بكر خالص ، فساعترف لك بأنك كنت لى موضوع أعذب الأحلام ، فعلى الرغم من أعمالى قد فاجأت نفسى أكثر من مرة راقضا فى أجواز الفضاء ، محلقا فى البلاد المجهولة التى تسكنينها أنت المجهولة ... أولم تنشرى على أوقاتى عطرا ؟ أو است مدينا لك بمكرمة من مكارم التشجيع التى تحثنا على أن نتقبل أعمالنا الشاقة ، قطرة ماء فى الصحراء ؟ ... »

والتصل تراسلهما . وأكثر من تبادل التحية والاعجاب والثناء . وأيقن بلزك ، اذ أهدته صاحبتة المجهولة كتاب « التشبه بالمسيح » بينما كان يكتب قصته الاصلاحية « طبيب الريف » ، أن الوشائع التى ريطته بهذه المرأة كانت من صنع السماء ..

وما أبرع ما كان بلزك فى اثاره حب النساء له واكتساب ثقتهم به ! ها هى ذى « الأجنبية » التى كتبت له فى اول الامر : « اننى « الأجنبية » بالنسبة اليك ، وساكون كذلك ما حييت ، فلن تعرفنى أبدا » ها هى ذى تدعوه الى لقاءها فى « نوشاتيل » ، وقد أنقضى

ثمانية عشر شهرا على بدء كتابهما . وكانت هذه اللقيا زاخرة بالوعود والآمال لادينا الطموح ، بعيدة الاثر في مستقبله ومصيره . رأى هناك للمرة الأولى « الأجنبية » ، البولونية ، مدام هانسكا ، « ايفلين » - حواء المنشودة . وكانت في التاسعة والعشرين من عمرها جميلة نبيلة ، رقيقة ، قد زوجها أسرتها للروسي الثرى الكونت هانسكى ، صاحب مقاطعة « فركونيا » في أوكرانيا ، وكان يكبرها بخمسة وعشرين عاما . ويختلف مؤرخو بلزاك في رواية ما دار بينه وبين الأجنبية في هذه اللقيا ، فيزعم بعضهم أنها احتفت به الأيام الخمسة التي أنفقها في نوشاتيل ، وأنها لم ترد له رغبة ولم ترفض له سؤالا ، وأنه عاد الى باريس مبتهجا منتشيا سعيدا ، ويرى بعضهم الآخر غير ذلك ، ومن القائلين بالرأى الأخير الأستاذ جويون الذى يعتمد على نص رسالة بلزاك الى أخته لور عقب عودته من سويسرا ، وفيها يقول ان « الزوج الملعون لم يتركنا طوال الأيام الخمسة ثانية واحدة » ..

واتصل تراسلهما . واشتدت عبارات الحب والشوق والوجد . وبعد أشهر ثلاثة قبيل رجوعها الى أوكرانيا ، لحق بها في جنيف ، حيث جددا عهدهما بان يتزوجا منذ يخلو جوهما من الكونت هانسكى الذى أسلمته الشيخوخة الى المرض وعمه قليل يسلمه المرض الى القبر . وكان لقاؤهما الثالث في فيينا سنة ١٨٣٥ ، والرابع في بطرسبرج سنة ١٨٤٣ بعد عامين من وفاة الزوج الكونت . ثم كثر التقاؤهما وطالت آماده ، ولكن مجوع ما أنفقا من وقت معا حتى سنة ١٨٥٠ ، أى خلال سبعة عشر عاما ، لا يكاد يتجاوز اثنى عشر شهرا . ومن هنا كانت « الرسائل الى الأجنبية » ، هذا الديوان الضخم الذى يضم خطابات بلزاك الى مدام هانسكا ، ولا يفهم للأسف خطاباتهما اليه - فقد كانت حريصة على اعدامها ، وهذا الديوان الغزير الذى لا يقل امتاعا وثروة أدبية عن ديوان رسائل

((فولتير)) في القرن الثامن عشر ، ورسائل ((فلوير)) في القرن التاسع عشر ، و ((يوميات أندريه جيد)) في قرننا العشرين .

هل كان بلزاك صادقاً في حب « الاجنبية » ؟ لا مكان للشك في ذلك ، فمن أول رسائله الى آخرها تتعاقب كلمات العاطفة والحنان ، وتتسلل لغة الغرام ، ولا ينقطع حديث الفؤاد المتيماً . انها قوته ، وسعادته ، وأمله ، وجوهرته . وهو يحبها فرحاً ، مسبحوراً ، هائماً ، متصوفاً ، هابداً . يقول لها يوماً : « ان لك خير نفس سماوية عرفتھا » ، ويوماً : « ليس في قلوب الرجال ، كما في قلبي ، حب عظيم ، مرش امامه اسجد دون ضعة » . ولكن الغريب في هذا الحب انه لم يفتر طوال سبعة عشر عاماً ، لم يتغير ولم يتبدل ولم يتقلب مع الأيام ، لم يتأثر بعد الزار ولم ينل منه غياب الحبيب ، ولم ينسج عليه اختلاف النهار والليل فشاء النسيان الذي يمتد الى كل شيء . ذلك ان « الاجنبية » كانت ثأره للكبرياء من ازدراء الماركيزة دي كاستر . وهو لم يبالغ ولم يعد الواقع حين كتب اليها : « انما تربطني بك جميع الروابط الانسانية ، الحب ، والصداقة ، والطموح ، والجد ، والكبرياء ، والفرد والذكرى ، واللذة ، واليقين ، والايمان بك يامن وضعتها فوق كثير من الخلائق . . »

وقد لا يكون أيسر ولا أبسط من اتهام بلزاك بأنه ظل يلهو سبعة عشر عاماً بتمثيل رواية هذا الحب الطريف . وذلك فرض آثار عجب الكاتب المحلل « بول بورجيه » فاخذ يتأمله من ناحية ، ويتعمق عاطفة بلزاك على ضوء عبقريته من ناحية أخرى ، حتى انتهى الى ان مثل هذا الحب الثابت الذي لا يتنابه اى عارض حب « ممكن الوقوع ، ومقره في نفس الفنان العظيم ملكة الخلق التي لا تخصص للمكان والزمان بل تخترقهما اختراقاً . وما هو بالحب الخيالي ، فالحب الذي يسجره الخيال هو أسرع ألوان الحب الى الخمود . انه حب واقعي ، كقصص بلزاك الواقعية ، يعتمد كما تعتمد هذه القصص

على وقائع الحياة . انه قصة بلزاك التي انشاها لنفسه ، وحملها في نفسه ، قصة اديب شقى بيده انه وفي ، قصة رجل عزب غارق في الديون تاكله الوحشية يضنيه العمل بيد انه يرنو الى كوكب بعيد يضيء حلقة لياليه ، ويناضل كي يتغلب على العقبات القسائمة في سبيله ، ليتزوج ذات يوم حسناء كريمة القلب حلوة العشرة ، عريقة النسب ، كبيرة الثروة . او لم يكن له الحق وهو الذي نشر قصصه في انحاء العالم العريض ، ان يستأثر بقصة نفسه ، يكون وحده بطلها وجمهورها جميعا ، ولا يطلع القراء الا على المشهد الأخير منها يوم تتم فصولها وتسجل الصحف في انباء المجتمع خبر زواجه الميمون ؟ .. ومن يستطيع ان يصدق على نفسه مثل هذا الترف سوى بلزاك ؟ »

على انه لم يبدع قصته كماها . لم يشكل غير بطله ، اما بطلته فقد كانت ، رقم ذكاتها وثقافتها ، محدودة الأفق ، عاجزة عن الاستيعاب فنه وفهم عبقريته ، عاجزة عن تحقيق حلمه الكبير تحقيقا كاملا . كانت رواياته تمتعها وتعجبها ، ولكن ذوقها الارستقراطية لم يكن يستطيع ان يكسب الرجل عيشه بقلمه وادبه . ولذلك مضى بلزاك يصف لها جلال عمله وروعة جهوده . والحق انه كان عنيدا جبارا ، اذا انكب على الكتابة وصل الليل بالنهار ، واغلق نوافذ غرفته خشية ان يدخلها النور الخارجى فيشتت الأخيلة الحية التي احتبسها معه ، وانطلق يحبر الصفحة تلو الصفحة ، لا يكاد يصرقه عن عمله الا اغفاءة قصيرة ، او وجبة خفيفة ، او قنداح من القهوة المركزة يحسوه على عجل ، فاذا صب على الورق جميع ما يضطرب في اعماقه من مشاهد قصته وخلاتها واحداها ، اذن لنفسه بان يخاع جيبته البيضساء الفصفصة كجبة الراهب ، وان يخرج الى المدينة والى الناس ..

لقد كان نحو سنة ١٨٣٣ ، أى حين بدأت علاقته بالأجنبية ، في اوج مجده الأدبى ، قد اتم تدريبه الفنى ، ونبتت عبقريته الخالقة ، وتلاحقت كتبه الرائعة تفزو القلوب والعقول ، في فرنسا وحدها ،

بل في أقطار أوروبا كلها . . ورسائله في هذا الطور تمثله لنا منتشياً بالظفر ، خفاق القلب بالأمل ، مستعر النشاط ، متوقد القريحة ، خصب الانتاج . انها ترخر بمثل هذه العبارات : « اننى أحس بالمستقبل . فها أنا ذا بين الثلاثين والأربعين من عمرى أى في عنفوان قوتى ، وينبغى الآن أن أكتب أجمل موضوعاتى . - انى أعيش في جو من الأفكار والآراء والخطط والأعمال والتطورات التى تلتحم وتغلى وتتأجج في رأسي ، خليفة بأن تدفعنى الى الجنون . - اننى اليوم أعى ما أكون الآن ، وما سوف أصبح فداء » . .

لقد عرف نفسه ، واجتلى عبقريته ، وتمثل أدبه الجدير بالخلود ، ورسم من الخطوط ما يسع الحياة الانسانية بأسرها ، ويجمع عشرات القصص الى عشرات القصص تحت هذا العنوان الرائع الغزير المعنى : «الكوميديا البشرية» .

الكوميديا البشرية

ست وتسعون قصة متباينة الألوان والأحجام والأساليب ، تضم نحو ألفى شخص من مختلف الطبقات والمهن والأعمال والأجناس ، وتمتد في المكان من المدينة بأحيائها الراقية والفقيرة إلى الريف بقراه الكبيرة والصغيرة ، وتعرض صراع الناس مع الناس ، وتفاعل الفرد مع المجتمع ، وتحلل العواطف وتعمق النفوس وتصور الحقائق الخفية تحت المظاهر الخالية ، وتمخر بالقارئ خضم الحياة المضطرب المائج . . تلك هي « الكوميديا البشرية » التي أودعها بلزك فلسفته وفنه وخلاصة خبرته وتفكيره ، الأثر الجليل الخالد الذي استنفد ملكات أديب عالمي .

التاجر والموظف والفلاح والطبيب والصحفي ورجل المال والقاضي والوزير ، الطفل والصبي والفتى والكهل والشيخ ، والعذراء الغريرة والعانس الحاقدة والأم الفاضلة والزوجة الشقية والمرأة اللعوب ، كل أولئك يتعاقبون على مسرح الانسانية الشاسع الأرجاء ، يتبادلون الأطماع والاحن والخطوب . يفجأ بعضهم بعضا بالخيانة والفدر ، ويضحى بعضهم لبعض بالحب والسعادة ، ونشهدهم في بيوتهم وشوارعهم ومنتدياتهم ومحال أعمالهم كأنهم جميعا في ساح قتال رهيب ، يديرون فيما بينهم حوارا مضحكا محزنا ، ولا يكف امرؤ منهم عن الكر أو الفر حتى يلفظ أنفاسه ويخلي الميدان ويسدل الكاتب على مأساته الستار الأخير .

وقد أطلق بلزاك على هذه المجموعة من القصص التي أراد أن يتعقب فيها آثام عصره عنوان « الكوميديا البشرية » معارضا الملحمة الشهيرة التي تعقب فيها « دانتى » آثام عصره ولكنه اتخذ مسرحها من الفردوس والأعراف والجحيم وسماها « الكوميديا الإلهية » .

وقسم بلزاك قصص مهزلته الانسانية ثلاثة أقسام : دراسات أخلاقية ، ودراسات فلسفية ، ودراسات تحليلية ، أكبرها القسم الأول الذى يتفرع الى « مشاهد من الحياة الخاصة » و « مشاهد من الحياة فى الأقاليم » و « مشاهد من الحياة الباريسية » و « مشاهد من الحياة السياسية » و « مشاهد من الحياة الريفية » .

والحق أن هذه الأقسام ليست إلا واجهة رائعة تخفى وراءها بنيانا سيىء التنظيم ، واطارا متكلفا اصطنعه الكاتب بعد لاي ليوحى للقارئ أن هناك وحدة جامعة تربط بين قصصه المختلفة . فإين التناسب بين أجزاء هذا الديوان الضخم ، والقسم الأول منه يشمل عشرات من الكتب على حين لا يشمل القسم الثالث إلا كتابين اثنين ؟ وما هذا التصنيف الذى يحدد الحياة بحدود ، ثم يميز بين أشياء هى فى الواقع شيء واحد يستغرق بعضه بعضا كالحياة الخاصة والحياة فى الأقاليم ، أو الحياة فى الأقاليم والحياة فى الريف ، أو الحياة الباريسية والحياة السياسية ؟ لا هو بالتصنيف الجامع ولا هو بالتصنيف المانع . والعلة فى ذلك ، القصور أن المنية عاجلت بلزاك قبل أن يتم عمله من ناحية ، وأنه من ناحية أخرى كان قد أنشأ كثيرا من القصص ونشرها منتقلة متفرقة قبل أن تخطر له فكرة جمعها وتنسيقها تحت عنوان « الكوميديا البشرية » .

على أن فى « الكوميديا البشرية » وحدة عميقة أصيلة ترمى حكمتها بالرابطة الخارجية التى يجهد فى خلقها اطار ملفق . تنبعث هذه الوحدة من مبدأ مقارنة الإنسان فى مجتمعه بالحيوان فى مملكته ، وهو رأى طريف كان موضع جلال العلماء فى القرن التاسع عشر .

وقد جهر بلزك في مقدمته بأنه آت بما لم يستطعه « ولترسكوت » ،
فهذا الكاتب الاسكتلندى قد رسم لوحات مختلفة لعصور تاريخية
لا تصل بعضها ببعض صلة فنية تجعل منها اثرا واحدا ، أما هو -
صاحب «الكوميديا البشرية» - فقد آثر ألا يقتبس موضوعاته من
التاريخ وعصوره الشتيّة ، بل عمد الى عصره ، فأجال بصره فى
مناطقه وأقاليمه هنا وهناك ، وسجل ظواهره وبواطنه فى مشاهد
متسلسلة متناسلة . إذن فالكوميديا البشرية صورة مصغرة للمجتمع
الانسائى يقدم فيها الكاتب للقارىء أمثلة من كل نوع ومن كل فصيلة
ومن كل بيئة ، ولا يقف فى عمله عند العرض والوصف ، بل يمضى
الى التحليل والتعليل ، يرد النتائج الى الأسباب ، ويصدر حكما
أخلاقيا على الأشخاص يبين الى أى حد يتفق سلوك أولئك وهؤلاء
مع المبادئ المقدرة التى ينبغى أن تدير كفة الكون . :

وثمة وحدة أخرى عميقة أصيلة أيضا ، تحكم الصلة بين أجزاء
هذا البنيان المرصوص تلك هى بدعة ظهور الأبطال القدامى فى
القصص الجديدة . وقد طرب بلزك حين أشرق فى ذهنه ذلك الخاطر
ذات صباح جميل من سنة ١٨٢٣ ، كما تروى إخته « لور » ، فقد
دخل عليها منتشيا بابتكاره ، متهللا ، يصيح بها :

- هنيئنى ! فسوف أكون رجلا عبقريا !

ومن المحقق أن هذه الفكرة لم تكن جديدة على بلزك سنة
١٨٢٣ ، لأنه استخدمها استخداما بدائيا ، دون أن يعى مبلغ خصبها،
فى محاولاته القصصية الأولى التى استعرضناها فى الفصل الثانى من
هذا الكتاب . ولكنه سسيستخدمها الآن فى « الكوميديا البشرية »
استخداما جديدا ، رائعا ، بعيد الأثر . لقد فطن الى ما تبعثه فى
نفوس القراء من قوة الشعور بحياة القصة ، وقوة الايمان بصدق
وقائعها ، عودة شخص بعينه سبق لهم أن عرفوه ، وألفوه ، وشاظروه
بؤسه وسعده ، وصحبوه طوال طور من أطواره فى معترك الحياة .

ان مثل هذا الشخص غنى باسمه ، غنى بخلقه ، غنى بماضيه ،
يضيف الى حوادث الرواية ومعانيها ثروة غزيرة . لا يكاد يبدو ،
ويلقى كلمة من كلماته ، أو يأتى بحركة من حركاته ، حتى تستيقظ
ذكرياتنا ، ويشتد انتباهنا ، ويتضاعف شغفنا بمدار القصة ، إذ
أننا نشترك فى تمثيلها من تلقاء أنفسنا بقدر ما نعرف من شخصية
صاحبنا ومسلكه مع الناس ، ومواقفه فى الأزمات ، وأهدافه التى
يسعى اليها دائما . وهكذا يصبح أبطال المهزلة الانسانية ملكا لنا
وملكا للكاتب معا ، وتصبح حياتهم الخيالية حياة حقيقية تمتد الى
أبعد من صفحات كتاب واحد وإلى أبعد من غلاف مجلد واحد ،
ولهؤلاء الأشخاص سجل مفصل جامع ، صنفت فيه أسماؤهم بترتيب
الحروف الأبجدية ، وذكرت أمام كل اسم عناوين القصص التى
يظهر فيها وترجمة موجزة ، وقد قام بوضع « فهرس الكوميديا
البشرية » هذا باحثان بلزاكيان هما « سرفير وكريستوف » ليكون
مرجعا لطلاب أدب بلزاك . وأعاد الأديب « فيلسيلين مارسو
F. Marceau هذا التصنيف أخيرا فى صورة حديثة .

★★★

ولعل فى عنوان « الكوميديا البشرية » ما يوحى للقارئ بأن
بلزاك قد أراد أن يصور المجتمع فى ديوانه بريشة الناقد . وأول
ما راع بلزاك وأثار ثائرة نقده هو سلطان المال . فالمال يستطيع
كل شيء . انه آفة المجتمع ، يخلق المساواة بين بنى آدم ويهدمها فى
آن واحد ، يسوى بين من امتلأت به خزائنهم ويهدم المساواة منذ أن
يملأ هذه الخزائن فيمنح أصحابها حقوقا وامتيازات جائرة . له هيكل
فى كل شبر من الأرض ، وله كهنة وعباد . ولكن طقوسه هى الفوضى
بعينها ، فهو نزق متقلب ، تجلبه المصادفة وتقصيه المصادفة ، ولا أدل
على ذلك من خضوعه لسعد المقامرين ونحسهم . والجميع قد أوردوا
له مكان الصدارة فنبواها متغطرسا غاشقا . هو فى مخادع الأمراء ،

وامسكاتب الوزراء ، و « صالونات » الطبقة الراقية ، كما هو على
موائد متوسطى الحال ، وفي أزقة الأحياء الحقيبة ، يأمر وينهى ، فالذا
أمره نافذ ونهيه مطاع وإذا النفوس خاشعة لعبثه وهزله !

ها هو ذا « دى تيبه » قد بدأ وهو موظف صغير لدى تاجر
الروائح العطرية « بروتو » بسرقة بعض الأوراق المالية ، فلما كشف
أمره رب العمل الطيب القلب زجره ثم عفا عنه ، حقد على ولى
نعمته هذا ولم يعف عنه أبدا ، ثم أصبح من أصحاب الملايين ، وتقول
زوجته : « ان اغتيال الناس على قارعة الطريق يبدو لم ضربا من
الاحسان اذ قورن ببعض العمليات المالية » ..

وها هو ذا المرأى اليهودى الرهيب « جوبسيك » ، بعد شباب
حافل بالمغامرات والصفقات والكسب الحلال والحرام ، قد كثر جسمه
وجف قلبه ، وبات في ذى عاطفة ، لا يشعر ولا يحس ، وإنما يعيش
لينعم بسلطان المال ويتلذذ باحتقار البشر ، فانه فيلسوف ساخر
يحدثك في برود عن عبر الحياة . ويصفه بلزك في غرفته النظيفة
الساكنة ينتظر المكاروبين من الخلق لكى يقرر مصائرهم كما يريد ،
ثم يصف أولئك الضحايا قائلا : « وأحيانا كان ضحاياهم يكثرون من
الصياح ويحتدون ، وبعد ذلك مباشرة يرين صمت شامل كما في مطبخ
يذبح المرء فيه فرحا من البط » ...

وها هو ذا « ريجو » مرأى القرية ، رجل طويل القامة ، أسود
الجفنين ، ينافق ويتمسكن ويبدى الفقر ، على حين يحظى في بيته
باشهى الطعام والشراب ، وياكل وحده ، وتقوم على خدمته زوجته التى
يعرف كيف يروعها بتقطيب حاجبيه الغليظين ، وخادمه الجميلة التى
لا يستبقيا لديه أطول من ثلاث سنوات متعللا دائما في نهاية هذا
الأمم بأنه مضطر الى طردها لوقاحتها مع سيدتها . وليته كان يكتفى
بخامادته الجميلات دون نساء القرية المستضعفات ..

وها هو ذا السيد « جرانديه » ، أشد البخله شحاً وتقشيراً ، قد
أثرى من صناعة البراميل ، وأصبح عمدة بلدته ، فاستغل نفوذ
منصبه في تحسين أملاكه . انك لتعس في حضرته خليطاً من مشاعر
الاعجاب والتقدير والرغبة ، فقد كانت خليقته مزاجاً من طبائع النمر
والثعبان ، إذ يعرف أين يكمن لفريسته وكيف يتربص لها ويواجهها
طويلاً ثم ينقض عليها فافراً كيسه ولا يتركها حتى يتخمه بالنقود ،
فاذا فرغ من فعلته نام نوم الأفعى التي تصطنع السكون والجمود في
انتظار الفريسة الجديدة . ويوقن أهل قريته أن له مخبئاً زاخراً
بالدنانير الذهبية يقضي فيه كلما أوى إليه تلك اللذة التي تملك نفس
البخيل حين ينظر ويطيل النظر الى كومة ضخمة من الذهب البراق ،
تلك اللذة التي خلع أدمانها على عينه لحظ الرجل الشهواني ، النهم ،
المتكتم ، الذي يختلس النظر اختلاساً ، ويأكل بمقلتيه ...

والجميع يجرون وراء المال ويتعلقون بأسبابه - وأشهر
الوصوليين في الكوميديا البشرية هو الفتى « راستنيك » الذي نشأ
في أسرة متوسطة الحال ، ونزح الى باريس ليعرس الحقوق ، فرأى
هناك زينة الحياة الدنيا ، ورأى استحالة الجمع بين الشرف والترف ،
وعانى ضميره كثيراً قبل أن يستسلم لتأثير « فوتران » ويطبق دروسه .
وليس « فوتران » استاذاً ولا عالماً ، وإنما هو مجرم متكرر هارب من
الاشغال الشاقة ، حاقط على المجتمع ، رجل ثاقب البصيرة ينفذ الى
قلوب الناس كما ينفذ الى خزائهم ، ويشبه باريس بغابة يتصارع
فيها صراع الحيوان أهل الحضارة الحديثة الذين يموهون الأطماع
الوحشية بطلاء من النفاق . ومبدأ فوتران في الحياة ألا مبدأ في
الحياة ، وقانونه ألا قانون هناك ، وإنما هي ظروف ليس غير ، والرجل
القوى هو الذي يوجه الظروف الى ما يشاء ...

ولو كان المال سبيد جيوبنا فحسب لهان الامر ، ولكنه في
الكوميديا البشرية سيد الراى العام وسيد الأمة ، في قصة «الأوهام » .

الضائعة» ولا سيما في الجزء الذي يحمل عنوان « رجل من كبار رجال الأقاليم في باريس » ، يهاجم بلزاك الصحافة هجوما عنيفا . وبطل هذه القصة فتى من إقليم أنجوليم يدعى « لوسيان دي روباميرى » أعجبت بمواهبه سيدة عريقة النسب ، فشجعته واصطحبته الى باريس ، حيث لم تلبث أن تخلت عنه وتركته وشأنه ، فاتصل بزمرة من الصحفيين ، ولس كيف ترتعد الحكومة مما تنشره أوراقهم ، وكيف يفرق الكبار من القلم الذى يذكر فضائلهم ، وكيف يربح الكاتب الذى يبيع مقاله اليوم لزيد وغدا لعمرى وبعد غد لمن يدفع أكثر من زيد وأكثر من عمرو ! هؤلاء الصحفيون عند بلزاك هتافة مروجون أو نقاد مغرضون ، يعيشون مما يدره عليهم المدح والهجاء . لا أمانة ولا وفاء ، فالعبارات والمقالات سلع متفاوتة الاسعار ، وهى لا تساوى - مادامت تنشر اليوم وتنسى غدا - إلا الدراهم القليلة أو الكثيرة التى تفيئها على كاتبها . ويلبى « لوسيان » ذلك الاغراء ، فيندفع الى محيط الصحافة ، وينجح نجاحا كبيرا ، ثم يضطرب ويترنح ، ويتهى الى البؤس . والصفحات الاخيرة من القصة تصوره لنا فى الليل ينظم - الى جوار صاحبتة الممثلة « كارولى » وهى على فراش الموت - اغنية مرحة ينبغى أن يسمعها اذا أسفر الصبح ليسند بثمنها نفقات الدفن ...

ولا يعدل سلطان المال فى المجتمع إلا سلطان الحب . وقد أبدع بلزاك فى تصوير الحب حين ينشأ فى القلب ، وحين يشتد ، وحين يؤدى الى المآسى الانسانية . فالحب كالمال مصدر من مصادر الفوضى فى المجتمع . عماده الآثرة التى تفصل الفرد عن المجتمع ، فيعتزل فى دنياه الخاصة ، ويزهده فى تحقيق المصلحة العامة . رأيت الى « فيليكس » فى قصة « زنبقة الوادى » كيف انصرف الى احضان « هنريت » عن محنة وطنه - وما كان اقساها فى واقعة « وترلو » وسقوط دولة نابليون ! .. والحب يؤلب الأبناء على آباءهم ، ويؤلب

الآباء على أبنائهم ، ويوغر الصدور ، ويمزق الأواصر ويفصم العرى .
وقد تجمد انسانية الانسان من فرط الطمع أو من فرط البخل ، ولكن
الطمع والبخل خير من الحب ، اذ يبقيان في نفس المرء على قوة تنفع
المجتمع ، هي قوة الارادة التي يخدرها الغرام ويورججها الهوى وتقضي
عليها الشهوة .

وكثيرة قصص بلزك التي تعرض علينا عواقب الحب الوخيمة .
حسبنا أن نذكر هنا حكاية « مدام جراسلان » . هي فتاة نقية النفس ،
رقيقة الشعور ، نشأت في كنف أبيها الذي بدأ حياته فقيرا ثم أثرى
من تجارة الحديد والنحاس في إحدى مدن الأقاليم . وكانت أجمل
صورة للطهارة حتى قرأت قصة « بول وفرجينى » التي كشفت لها
الدنيا ، وصورت لها الحب ، وأثرت في قلبها تأثيرا رهيبا . وحين
بلغت سن الزواج زوجها أبوها بالسيد « جراسلان » ، وهو رجل في
السابعة والأربعين من العمر ، بدأ حياته فقيرا أيضا ثم جاهد حتى
أصبح من رجال المال . وأقبلت العروس الفتاة على العلم والثقافة
لكي تنبوا المكان اللائق بها في المجتمع . وسرعان ما أمسي صالونها قبلة
أعيان المدينة . ولكن زوجها سئم حياة الترف ، وهاجت بنفسه شهوة
الكسب ، فجردها من زينة الحياة وعاد إلى أعماله . وفي تلك السنة
وقعت جريمة هائلة ، فقد وجدوا الشيخ البخيل « بنجرية » - وهو
ممن يدفنون ذهبهم في القدر - صريحا بجوار جثة خادمته ، واتهم
بالسرقة والقتل عامل فقير معروف بالجِد والأمانة يدعى « تاشيرون » .
وانقسمت المدينة إلى حزبين ، حزب يدافع عن تاشيرون وحزب يدينه .
وبلغ من حماسة مدام جراسلان لبراءة تاشيرون أن توسلت إلى النائب
العام - وكان يتودد إليها - في أن يعدل عن إثبات الجريمة عليه . وبعد
عشر سنين من اعدام تاشيرون تعترف مدام جراسلان « لقسيس
القرية » بأن أباهما عهد إليها وهو على فراش الموت بتربية هذا الفتى
الفقر ، الذي كان يتوسم فيه الذكاء والرجولة ، فاهتمت بأمره ،

وشجعته على أن يتثقف كما تثقفت هي ، فأصبح أقرب إلى نفسها من زوجها الجشع المادى . وعرفت معه السعادة . ولما تركها ذلك الزوج دون مال ، عز على «تاشيرون» أن يراها معوزة ، فأراد أن ينتهب لها ذهب البخيل ، ولكن الرجل استيقظ وخادعته ، فقتلها ! . أما هي فاضطرت إلى أن تصمت من أجل الولد الذى كانت تنتظره ، وكان تاشيرون أباه . وهكذا دفعت إلى المفصلة بالفتى الذى وكل إليها مصيره .

ومن عساه يحمى المجتمع من طفيان المال وفوضى العاطفة ؟ أهى الحكومة ؟ ان رجال السياسة في الكوميديا البشرية ، وعلى رأسهم رئيس الوزراء « دى مارسيه » ، قوم لاخلق لهم ، يستبيحون كل شيء ويبررون الوسيلة بالغاية . وهناك قصة طريفة ينقد فيها بلزاك نظام الإدارة و « الروتين » الحكومى عنوانها « الموظفون » . ومثل الحكومة كمثل الصحافة ، فالصحافة عدة هائلة يحركها كتاب صغار ممن يستثمرون المنافع والأهواء ، ومكاتب الحكومة سلطة عملاقية يحركها اقزام ضئال . جميع الموظفين يسعون إلى شيء واحد ، هو « التقرير » . فالتقرير سيدهم ومولاهم . اذا أتم « التقرير » عرض مسألة من المسائل ، فرح الموظف الذى دبجه ، واغتبط الموظف الذى تسلمه ، ورضي الموظف الذى حفظه بين الأوراق المحفوظة ، وانشرح صدر الحكومة ! وهكذا تنكس مشروعات الإصلاح في الأضابير . هل اتاك حديث « رادوردان » رئيس القلم بإحدى الوزارات ؟ كيف درس فساد الإدارة وكتب مذكرة بين فيها الفائدة العامة التى تنتج من اختزال عدد الموظفين ورفع مرتباتهم وتعيين الشباب منهم في المناصب العليا ؟ هذا المشروع النافع كان خليقا بأن يصادف قبولا لدى الهيئات العليا لولا حرص واضعه على النزاهة ، وحرص زوجه على الفضيلة ، وحرص شرذمة من الطفيليات على التحالف ضده دفاعا عن مصالحهم الشخصية .

هكذا صور بلزك المجتمع في « الكوميديا البشرية » .

لقد نظر الى الدنيا فرأى حقيقتين رئيسيتين تشبه منهما حقائق الحياة : انعدام المساواة بين الكائنات المختلفة ، وسمي الكائنات جميعا الى الارتقاء . ففي مملكة الناس ، كما في مملكة الحيوان أو النبات ، سلم من الطبقات أدناه الاضعف وأعلاه الاقوى . وبين الاضعف والاقوى في مملكة الناس درجات متتابعة ، فصائل كثيرة وأنواع كثيرة ، كتلك الفصائل والأنواع التي تمتد من دود الارض الى الفيل والأسد ، أو من العشب الطفيلي الى الدوح العظيم . وبين هذه الكائنات المتباينة صراع دائم . القوى يسحق الضعيف ، والكبير يلتهم الصغير . بيد أن قوة الاقوياء لا تكفل سيادتهم ، كما أن ضعف الضعفاء لا يحتم هلاكهم . فقد يتضافر الضعفاء ويتساندون فيهزمون القوى أحيانا ، وقد يظهر مكر الجبناء على بأس الأشداء أحيانا . ذلك أن مملكة الكائنات من أسفلها الى أعلاها مضطربة مائجة ، تتحرك حركة صعودية ، حركة الى فوق : يريد المنحط أن يرتفع ، ويريد الجائع أن يشبع ، ويطمح الجميع الى مزيد من الحياة .

وربما بدت الفوارق التي تفصل بين الناس والناس أهون من الفوارق التي تفصل بين العصفور الرقيق والنسر الجارح ، وبين الحشرة الطفيلية والأسد الهصور ، ولكنها في الواقع أشد خطرا لأنها ليست فوارق مادية فحسب ، بل فوارق نفسية دقيقة ، والقوى النفسية بألوانها العديدة أبعد أثرا في تمييز الخلاق . ومن هنا كانت حركة ارتقاء الكائنات في دنيا البشر أسرع وأروع منها في دنيا الحيوان . فالإنسان خالق بأن يشب في مجتمعه وثبات يعجز الحيوان عن أن يقطع مثلها عبر آلاف من الأجيال .

على أن وجود المجتمع يتدخل في هذا الصراع المتصل بين الكائنات ، فيزيده تشابكا وتعقيدا . هذا الكفاح الذي يبدو عنييفا في دولة

الحيوان ، على حين أنه أعنف في دولة الناس ، نراه يشتد عنفا كلما ارتقى المجتمع وتحضر . في المداخن الكبيرة ، يستطيع الكائن البشرى أن يصل إلى درجات هائلة من الألم ، ومن اللذة أيضا ، غير أن اللذة اذا تجاوزت حدا معلوما أصبحت افراطا وبالتالي مصدر اختلال داخلي يؤدي إلى الفناء ومن ناحية أخرى يضاعف المجتمع هذا الصراع إذ يضيف إليه صراعا جديدا ، أرحب ميدانا ، هو الصراع القائم بين الكائن الفرد الذى هو الانسان والكائن المشترك الذى هو المجتمع ، فالمجتمع بدوره يناضل للاحتفاظ بكيانه ، ويفرض على أولئك الذين يؤلفونه شرائع معينة ، ما هى الا عقبات جديدة تعترض سبيلهم إلى اطعامهم ، وخدمات جديدة تضاف إلى صدماتهم ، وآلام جديدة تثقل ألامهم ...

وإذا كانت تلك المبادئ هى التى يراها بلزاك أساسا للحياة الطبيعية ، فما موقفه إزاء مشكلة الانسانية الكبرى ، مشكلة الفرد والمجتمع ؟ انه يهمل على المدنية والحضارة ، ولا يكاد يهتم دعوته إلى الثورة والفضي . أعظم أبطاله هم الخارجون على القانون ويمثلهم « فوتران » ، ثم الوصوليون الذين يلتوون في سبيلهم مع القانون ويمثلهم « راستنيالك » . وإلى جانب هؤلاء وهؤلاء يحتشد الضحايا ، إهلال البؤس والشقاء ، « المرأة المهجورة » التى لا ينال أثمها من عطفنا عليها ، و « المرأة في الثلاثين من عمرها » بهفواتها الكبيرة التى تستدر رأفتنا ، والمرأة التى تأبى أن تنفوس في الخطيئة فيعاقبها المجتمع كما عاقب « الدوقة دى لانجية » . ولا يجسد أبطال بلزاك السعادة ولا الامتياز في خضوعهم للتقاليد وامثالهم لنظم المجتمع ، وانما يسعد السعداء منهم ويمتاز المتمازون منهم حين يقلبون الاوضاع ، ويتجاوزون الحدود ، ويقهرون الواقع ويقتصبون من المجتمع ما يريدون . وأما الضعفاء فتتوهم انقائهم ، وقد يلوذون بالموت من عناء الحياة . ومن الحق أن « طبيب الريف » قد شذ عن

سواء من أبطال الكوميديا البشرية فوجد توازن قواه وامتيان
شخصيته في اتباع شرائع المجتمع وفعل الخير والسير بالناس في
ركب الحضارة ، ولكنه حالة فردية في قصص بلزاك ، فضلا عن أنه لم
يصب ما كان ينشد من سعادة ، فقد كان قلبا جريحا أي ضحية
من ضحايا الحياة .

يالها من صورة قاتمة ! لقد أثارت هذه النظرة السوداء الى
الانسانية سخط كثير من معاصري بلزاك ، فرد عليهم باحصاء كتبه
وابطاله محاولا ان يثبت ان كتبه التي تذيع للخير تربو على كتبه
التي تذيع الشر ، وان عدد نساته الفاضلات يفوق عدد نساته الآثامات
ولكن مثل هذا الدفاع لا يقنع قط من قرا « الكوميديا البشرية »
ولس ما تعرض من فساد المجتمع .

وعلى الرغم من هذا كله ، كان بلزاك أدبيا متفائلا ، يعرف الانسان
كرامته ، ويؤثر البناء على الهدم . ولذا تضاربت آراء النقاد في حقيقة
أدبه ومعانيه ، وفي تحديد القيمة الأخلاقية للدروس التي يقدمها الى
القراء . وقد ظلت فلسفة بلزاك الاجتماعية دأمة متناقضة معقدة
في نظر من تناولوها من بعض أطرافها بالشرح والتأويل والتخريج ،
حتى توفر الاستاذ « برنار جويون Bernard Guyon » على
دراساتها نحو عشرين عاما ، ونشر فيها رسالته سنة ١٩٤٧ ، فجلاها
وحللها الى عناصرها ، وارخ أطوارها في حياة بلزاك وكتبه .

لاحظ الاستاذ « جويون » تشاؤم بلزاك منذ صباه في جو الاسرة
والمدرسة ، ثم في مكتب المحامي ، ثم في مشروعاته الفاشلة وعشرة
صاحبائه المسببات ولاحظ مع ذلك ما كان يمتاز به من طبيعة قوية .
من ارادة حازمة ، ونشاط خصب ، وجلد عظيم ، وحب للحياة على
اختلاف صورها . فهو من ناحية كان ينظر الى الحياة كما هي ،
ويقدر الواقع حق قدره ، ومن ناحية أخرى كان يستمد لنفسه الحياة

غذاء من آراء الفلاسفة المتفائلين الذين ملثوا آخر القرن الثامن عشر في فرنسا ايمانا بوجوب تقدم الانسانية وبقدرة العقل على تحقيق هذا التقدم ، وغذاء آخر من آراء طائفة «السان سيمونيين» الذين حاولوا اصلاح المجتمع في اوائل القرن التاسع عشر . وحسم الاستاذ «جويون» ما يبدو من التناقض في أدب بلزاك بأن ميز في هذا الأدب وجهتي النظر المختلفتين اللتين أنجبته : وجهة نظر القصاص الذي يريد أن يصور حقيقة الواقع ، وجهة نظر المفكر الذي يريد أن يرسم مذهبه الاجتماعي والسياسي . فلا بد للاول من أن يقدم لنا لوحة صادقة لحياة الناس بما فيها من اضطراب وآلم وظلم وشقاء ، لا بد له من أن يتقصص ابطاله ويندفع معهم في البحث عن السعادة والارتطام بالعقبات الاجتماعية ، ولا بد أن يخلق بيننا وبينهم التجارب الوجداني التام فتحمس لاطماعهم ونشور لشواتهم ونشاطهم عندهم ونتأثر لمصيرهم . ولا بد للثاني ، وهو الفيلسوف الحريص على حياة المجتمع وكيانه ، من أن يسعى الى حفظ التوازن بين القوى المتنوعة تسيطر على العالم ، فان في ذلك وحدة صيانة المجتمع من الفساد والفناء ، وضمان بقاءه سليما مرصوصا متماسك الاركان . وما من شك في أن الفيلسوف كالقصاص يهتم بسعادة الافراد ، إذ أن حظا من هذه السعادة لازم لصلاح أمر المجتمع ، ولكن السعادة الشخصية ليست الهدف الرئيسي للنظر الى منفعة الجماعة . وهكذا نجد في الكوميديا البشرية مقابل الثورة التي يعمد اليها الاشخاص ، سلطانا واستبدادا ونظاما عاما يكفل سلامة المجتمع ويقويه شر الانحلال .

ينبغي أن تكون السلطة اذن في يد واحدة ، يد قوية ، مطلقة النفوذ . وينبغي أن تتساند طبقات الأمة في أوضاعها الثابتة ، فلا سبيل الى المساواة بينها عند بلزاك ، لان الطبيعة قد فرصت التفاوت بين درجات مختلفة ، وكل جهد يبذل في المجتمع للقضاء على تفاوت

المراتب الطبيعي يؤدي - اذا نجح - الى فترة من الفوضى يتشكل
اثناءها مجتمع جديد على اساس من فوارق جديدة . وللمحاکم أن
يدين « بالكيافيلية » في سياسة الدولة ، يردع التمرد بالارهاب
وينزل الى قبول الامر الواقع ما لم يكن بد من قبوله ، ويمكر بالرأى
الصام في سبيل تحقيق الصالح العام ... ما أعظم نابليون اذن
وما أحكمه !

ولئن استحال خلاص الفرد خلاصا تاما من الاضرار التي يلحقها
به وجود النظام الاجتماعى ، فمن المستطاع تخفيف هذه الاضرار .
ضعوا حدا لامتداد المدائن وطفيانها ، وامنعوا « كبار رجال الاقاليم »
من الهجرة الى الحاضرة حيث يخيفون ويتلفون ، وأبقوا عليهم فى
اقاليمهم حيث ينتجون وينفعون البلاد . ضعوا حدا لاغراء المجون
وفتنه الترف ، واصلحوا قوانين الزواج ، واحسنوا تربية البنات ،
لتنتصر الفضيلة على الرذيلة ويستقر المجتمع . والدين فوق هذا كله
وسيلة من وسائل الحكم الصالح ، لأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر،
اى أنه دافع ايجابى يحث العباد على فعل الخير والعمل على رقى
الانسانية ، ووازع سلبى يقف غلواء الاغنياء وبطش الاقوياء ، ويهدى
من نقمة الفقراء وثورة الضحايا .

ذلك هو مذهب بلزاك الاجتماعى والسياسى كما استخلصه
الاستاذ جوبون ، وفيه نرى كيف اتلفت الحرية والاستبداد ، وكيف
تمشي التجديد مع التقليد ، وكيف اجتمع اصحاب اليسار واصحاب
اليمن صفا واحدا . كان بلزاك ثائرا وكان محافظا ، كان جمهوريا
وكان ملكيا ، فالب عليه جميع الاحزاب اثناء حياته ، وكسب ثناء
جميع الاحزاب بعد وفاته .

بقى أن « الكوميديا البشرية » درس رهيب ، وأن بلزاك رجل
يدس السم فى السم ... الى أى مدى يصح هذا الاتهام ؟ ولماذا
يحمل أنصار الاخلاق الفاضلة على بلزاك ؟ لأنه يصور قبح المجتمع

ولأوم النفوس ؟ لقد كان من الشجاعة والصراحة والجرأة بحيث قال
كأمة الحق في أخلاق الناس ، وهاجم أصحاب المال وأصحاب النفوذ .
وفي الحياة الخير والشر ، وبلزك يدعو قارئه الى التفكير ويترك له
حرية الاختيار . وكيف يقوم الفن السليم على غير أساس من تصوير
الحقيقة ؟ لقد صور بلزك حياة البشر من خلال عصره ، صور
اضطرابها واختلاطها ، حلوها ومرها ، واصطراع القوى المختلفة في
سبيل الارتقاء . انه كاتب صادق .

فن القصص

كان بلزاك يحرض في انشاء قصته على ثلاثة أشياء : ان يتقبلها القارئ تقبل الحقيقة ، لا على انها حكاية خيالية ، وان يتتبعها القارئ بشوق وشفق فلا يملها ولا ينصرف عنها حتى يبلغ آخرها ، وان يعجب القارئ في جميع مراحلها بجمال البيان الخليق بالعمل الفني . أى انه كان ينشد التصديق والتشويق والتزويق .

فالقصة أولا ، مهما اعتمدت على الواقع ، لابد ان تختلف عن الواقع . ولا كذلك التاريخ : فالمؤرخ يلاحظ الحقائق ويسجلها كما حدثت ، مضطربة مختلطة مهوشة ، على حين يتصرف القصص في تلك الحقائق بالحذف والاضافة ، ويقتبس منها مادة رواية متصلة متسلسلة مجبوكة . وهيئات ان تصادف في الحياة مثل ما تجد في الروايات . فالحياة لا تنسق الفصول ، ولا تحكم العقد ذلك الاحكام المتقن ، وانما هي تقدم لنا خطا مبتورا أو خطوطا متفرقة لماسة من المآسي ، وعلى الكاتب ان يستعين بهذه الخطوط في رسم قصته ، وله مطلق الحرية في ان يكمل ناقصها ويقوم معوجها ، وأن يبت فيها المعنى الذى يريده . ولما يلقى الكاتب وجه بطل قصته أو بطلتها ، وانما هو يؤلف من ملامح أشخاص كثيرين صورة شخص واحد تسيطر عليه عاطفة بعينها . وهكذا كان بلزاك يستعير من الحياة عناصر قصته ، فاذا هي تبدو حقيقية ، واقعية ، مأموسة الجزئيات . وقد

استعرضنا في فصول سابقة كيف كتب قصص « الشوان » و « المرأة المهجورة » و « الدوقة دي لانجيه » .

وكان بلزاك يعتمد الى التقديم بين يدي قصته بمقدمات طوال، تصف البيئة والأشخاص والنفوس والجو ، وتعرف القارئ بالبطل وأصحابه ومذهبهم في الحياة ومكانهم من المجتمع ، حتى اذا قضي بينهم بعض الوقت وآلف عيشهم لم تدهشه أفكارهم وحركاتهم وأعمالهم في سياق الرواية . وللوصف في مقدمات بلزاك غاية أخرى غير التمهيد، هي الغاية التي يقصد اليها المؤرخ أو الباحث في علم الاجتماع من تسجيل ظواهر عصره وبواطنه وكتابة وثيقة خاصة عن طبقة من طبقات الناس .

ومن هنا تفيض الصفحات الأولى في قصص « الكوميديا البشرية » بكثير من التفاصيل التي يوردها الكاتب ، ويعلق عليها ويفلسفها ، مما قد تضيق معه أنفاس القارئ أحيانا .

لم يكن بلزاك اذن يقنع بتصوير الطبيعة في لوحته ، بل كان يلد له ان يهيمن عليها وان يتخذ منها ممثلة في مسرحه ، وان يسند اليها دورا هاما في القصة التي يرويها ، فكل بيئة في رأى بلزاك صورة لأهلها . وما الحي والشارع والبيت الا اطار المنطقى للون معين من ألوان العيش ، انك تستطيع ان تعرف شخصية الرجل من نظرتك الى مسكنه ، كما تستطيع ان تستدل على نوع الحيوان من نظرتك الى جحره . وبلزاك متأثر في ذلك بعالم من علماء التاريخ الطبيعي هو « كوفييه » (Cuvier) ، وباستاذ من أساتذة الفلسفة هو « فيكتور كوزان » Victor Cousin كان يقول في السوربون وكان بلزاك يسمع له في شغف :

« أعطني الصورة الجغرافية لبلد ما ، صف لى مياهه ورياحه

وتضاريسه ، واذكر لى حاصلاته الطبيعية ، نباته وحيوانه ، وأنا
زعيم بأن أصف لك سافا أهل هذا البلد .

ولعل في هذا الموجز لفاتحة « أوجيني » جرانديه (Eugénie
Grandet) ما يغنى عن ضرب أمثلة كثيرة لا يتسع لها المقام :

« في بعض المدن بيوت من الطراز العتيق توحى اليك هذا الشعور
بالوحشية الذى يخالج المرء حين يقف في الكهوف المظلمة ، والقفار
الجرد ، والاطلال الخاشعة ، فلعلها قد جمعت صمت الأهوف وجذب
القفار وبلى الاطلال . ولشدة هدوء الحركة والحياة في تلك البيوت
يظن الطارىء على المدينة أنها بيوت مهجورة ، ما لم تفاجئه نظرة باردة
يرسلها اليه من وراء النافذة رجل جامد يستطلع أمر هذه الخطى
القريبة التى دقت سمعه .. مدينة « سومور » بيت من تلك البيوت،
على جانب طريق نظيف جاف ، قليل المارة ، كثير الالتواء ، ضيق،
مظلم في بعض مواضعه ، شديد الحر في الصيف ، قارس البرد في
الشتاء .. صاحب هذا البيت هو السيد جرانديه .. »

ويلي ذلك وصف للسيد جرانديه ، بطل البخل في « الكوميديا
البشرية » .

ويرى بلزاك أن الدور تشكل النفوس ، فإذا استبدل امرؤ
بمنزل منزلا أخطأ الاستقرار في الحياة ، ودب اليه الاضطراب
والانحلال . وهذا ما أصاب « أوجوستين جيوم » ، تلك التى نشأت
في دكان أبيها العتيق المتواضع ، حيث الجد والأمانة والكسب القليل
والادخار الكثير ، تلك التى شبت في المتجر الساكن القائم « وتفتحت
كزهرة البنفسج في أعماق غابة » ، بعيدا عن عواصف العاطفة ، ثم
أعجب بجمالها فتى رسام عريق النسب يدعى « تيودور دي سوميرفيو »

فتزوجته بالرغم من نصح والديها المحافظين على التقاليد ، وسرعان ما استحكمت سوء التفاهم بينها وبين زوجها ، فقد كانت تنكر عيش الفنانين ونزقهم وجنونهم ، لأنها لم تعرف بين جدران الدكان العتيق وفي ظل أسرتها المتواضعة سوى الاناة والعيش الريب وتدوين الارقام في الدفاتر . . .

ان للاشياء الخارجية والظواهر المادية قيمة كبيرة في أدب بلزاك ، فهي تؤثر على الخلاق ، وتحدث الأحداث ، وتستتبع المآسى ، كأنها كائنات حية مفكرة نشيطة . وفي رسم صور أبطاله ، يحمل بلزاك ملامح الوجه ، وحركات البدن ، وخصائص الزى ونوع الزينة، ولون البشرة أو شكل الشعر ، تلك القيمة الرمزية الغزيرة الایحاء، فإن كل صغيرة من هذه الأشياء وثيقة خطيرة تحدد ذكاء المرء ودرجة ذكائه وطبقته الاجتماعية . . . ويستطيع الذين قرءوا احدى قصص « الكوميديا البشرية » أن يفهموا ماذا يعنى بلزاك بالتفاصيل التي يحشدنها في أية قصة جديدة عليهم ، ويستطيعون أن يستنبطوا ما يربط الاشخاص والبيئة من وشائج ، ويستطيعون أن يؤولوا كل شيء كما يؤوله الكاتب ، ويتوقعوا أن تجرى القصة على النحو الذي تجرى عليه امامهم في آخر الأمر .

ولكى يصب بلزاك الحقيقة صبا في قصته التي استعار عناصرها من الواقع ومهد لها بمقدمة قوية ، كان ينطلق في دنياه فيتقمص نفوس أبطاله ، ويفكر بعقولهم ، وينطق بألسنتهم . وقد لاحظنا كيف تدرب على صياغة في محاولاته الأولى : ففي « واردة بيراج » يتبادل الاشخاص كلاما كالهراء أجوف المعانى لا يدل على شيء ، ولكنهم في « أرجو » و « فان كلور » يعبرون في أحاديثهم عن عواطفهم ومشاعرهم تعبيرا . يفيد سياق القصة ، ثم تكتمل روعة الحوار في الروايات التالية حيث تلقى الكلمات نورا ساطعا على نفوس المتحدثين ، وعلى المواقف والازمات ، وتعرض الأحداث ، وتعرض

الممثلين في لباقة ورشاقة ويسر . لقد انتهى بلزاك الى اتقان صناعة الحوار كما يتقنها الكاتب المسرحي : اولا تذكرنا ألفاظ السيد « جرانديه » بالفاظ « البخيل » في مسرحية مولير الشهيرة ؟ انه يجلس الى المائدة ذات يوم فيرى زوجته متعبة ، شاحبة الوجهه ، فيقول لها :

- كلى ... انك مصفرة الوجهه بعض الشيء ولكنى احب الأصفر ...

وفي رواية «طبيب الريف Le médecin de campagne» يفرد فصلا بأكمله لقصة معركة من معارك نابليون يرويها جندي عجوز لجماعة من الفلاحين يسمرون في الليل ، ولن تستطيع ان تشك وأنت تقرأ تلك اللغة الشعبية في أنك تصفى لحديث رجل ساذج طبيب من عامة الشعب ، لقد برع بلزاك في اختيار الألفاظ الأصيلة الصادقة ، وحقق تلقينها لمثلئ رواياته : فعلى شفتي كل منهم عبارات تنم عن مهنته وخلقه وثقافته وبيئته ، وما صفحات الحوار في « الكوميديا البشرية » الا صورة صوتية بليغة للمجتمع الفرنسي في ذلك العصر ، كذلك الصور الاجتماعية التمثيلية التي ينقأها لنا المذيع اليوم .

وبكان بلزاك - قبل قارئه - يؤمن بحقيقة القصة التي يرويها ، ويحيا مع أبطالها حياة أعمق من حياته مع الناس ، كان يخلق أبطاله ، ويربهم كما يربى الوالد أبناءه ، ويهتم بهم ، ويتتبع مصيرهم ، ويشاطرهم سعادتهم وشقائهم ، ولا يفارقهم قط . ويتناقل مؤرخو بلزاك هذه النادرة : زعموا انه لقي أديبا من الأدباء المعروفين بعد وفاة قريب له عزيز عليه ، فواساه بلزاك بكلمة عزاء مبتذلة ، ثم قال له :

ـ والآن دعنا من هذا ، ولندخل الى جد الأمور : من الذى

سيتزوج أوجينى جرانديه ؟ ...

وكيف يخطر للقارئ بعد هذا كله أنه يقرأ أدبا خياليا ؟ ان قصة بلزاك بين يديه قطعة من صميم الحياة والواقع ، الا ان هذا الكاتب الذى يتدخل فى كل شيء ، ويفرض تعليقه وفلسفته علينا فرضا ، كثيرا ما يثقل علينا ويرهقنا ويشير فينا الضجر . وأكبر الظن أن بلزاك كان يدرك رذيلته تلك ، فحاول أن يستأثر برضا القارئ وشغفه طوال القصة ، واحتال على ذلك بمختلف وسائل التشويق .

وأول وسائل التشويق اختيار الموضوع ، وبلازاك خبير بالموضوعات المثيرة الجذابة التى تأسر لب الجمهور طالما حاكى القصص المثيرة والروايات البوليسية فى شبابه ! ولئن خلت « الكوميديا البشرية » من السرايب الخفية ، والفرد المظلمة ، والابواب السرية التى تعمربها روايات المفامرات الشعبية ، لقد حتفظ بلزاك فى أروع قصصه بالمواقف القديمة الماثورة . مع تغيير فى الدرجة لا فى الطبيعة : هنا ، بدلا من جنايات القتل والاغتصاب والاختطاف على قارعة الطريق أو وراء الأدغال ، يروى القصص جرائم القتل والاغتصاب والاختلاس التى سردها الأب « مونديفير » من فوق منبره ، هسهة الجرائم المشروعة ، التى تروح صحتها كل يوم نفوس بشرية بريئة ، ولا يشهر فيها السفاحون الخناجر ولا يدس فيها الخونة السم ، فلا يريقوا الدماء ولا يزهقوا الارواح عنوة ، وإنما هم يستخدمون العواطف والأحقاد والأطماع ونصوص القانون ، ويظلون كراما فى عرف المجتمع . هنا ، وفاة غير طبيعية ، فضيحة مجهولة ، سعادة مريرة ، وثروة كدسها الكسب المحرام ، وظلم لا ترفعه شرائع الناس . انها « مشاهد من الحياة الخاصة » : مأس مستترة ، تكنمها العائلة ولا يتحدث امرؤ عنها ، ولكن الراوى يفتن اليها بعينه الثاقبة ، وبصيرته الواعية ، ويكشف عنها لنا فى فصول قصصه . لقد

استحال « القرصان أرجو » الى « فوتران » في « الكوميديا البشرية » ، هذا الجبار العنيد الخارج على القانون ، الذي يعيش متنكرا في باريس ، ويناضب المجتمع العداء ، ويصول ويجول دون أن تهتدى اليه الشرطة ، واستحال من ناحية أخرى الى أمثال « دي تيبه » أولئك الذين لا يخضعون للقانون ، ومع ذلك لا تنقبهم العدالة ، لأنهم يزودون في الخفاء ، ويتصيدون الفريسة الضعيفة ، ويظهرون بمظاهر الشرف ، ويعرفون كيف يضبطون أعصابهم دائما . وهل أشد من هذه الموضوعات أغراء للقارئ بالتطلع ؟

على أن بلزاك كان يحذر عيوب « القصص السود » ويحرص على تجنبها ، فليست القصة الشائعة هي القصة المعقدة ، ان للبساطة سحرا عميقا يروق النفوس ويستهوئ الأفتدة ، وبالبساطة كان بلزاك يجتذب قراءه في أغلب الأحيان . من تسكوين أوجيني جرانديه ؟ انها فتاة حالة في قرار بلدة صغيرة تهيم بآبن عمها الذي لا يلبث حتى يهجرها وينأى عنها . تلك هي القصة ، ولكن بلزاك استطاع أن يجعل منها أثرا فنيا خصبا غزيرا ، فقد عالج فيها مسائل كثيرة : عالج التاريخ والنظام الاجتماعي ، اذ اتخذ من السيد جرانديه - حين اشترى في أول أمره أراضى الكروم بمدينة سومور - ممثلا للشعب الذي انتقلت اليه أملاك الكنيسة عقب الثورة الفرنسية ، وعالج بعض مشكلات الأخلاق : مشكلة الزوجة المسكينة التي يستبعدها زوجها في الطبقة الاجتماعية الوسطى ، ومشكلة تربية البنت ، ومشكلة الشباب الذين يواجهون الحياة فتجرفهم الأطماع الى حيث تفلظ قلوبهم وينكرون عهود الحب ، ومشكلة المال والدور الرهيب الذي يؤديه في الحضارة الحديثة ، وعالج فوق هذا كله مسائل نفسانية : فحلل عاطفة الأبوة وعاطفة البخل ، وحلل عاطفة الحب في نفس عذراء حيية تقيا تعيش بعيدا عن العاصمة ولا تعرف غير المثل العليا ، وبذلك أصبحت القصة اليسيرة الساذجة قصة جميلة فاتنة من أبدع كتب الأدب الانساني .

ولم يكن بلزاق يهمل الأحداث ، فالأحداث هي أول ما يبحث عنه قارئ القصة ، وقارئ القصة يقبل عليها أشباعا لفريزة الاستطلاع قبل كل شيء . وكان بلزاق يجيد تقديم الأحداث لقارئه بالقدر الذي يشير تشوقه ولهفته دائما ، يلقي اليه من المعلومات بما يكفي لفهم سير الأمور ، ويدخر المفاجآت للوقت المناسب . ويظل القارئ شديد التطلع الى الصفحة التالية من الكتاب ، شديد الرغبة في الوقوف على تطور الازمة ، حتى تنتهي القصة ، وتنطوي صفحاتها جميعا بين يديه .

وخير مثل لتشويق القارئ بأسلوب تقديم الأحداث قصة الأب جوريو (Le Père Goriot) التي صدرت سنة ١٨٣٤ ، وبلغ فيها بلزاق - كما يرى الأستاذان جويون (B. Guyon) وبارديشي - (M. Bardèche) - ذروة فنه .

و « الأب جوريو » هي قصة الحب الأبوى الذي يصل الى حد الجنون ، وقصة تطور نفس طيبة من الخير الى الشر تحت ضغط الاطماع التي تمتل فيها والمظالم التي تعوطها ، وفي هذه القصة ثلاثة أبطال نميزهم بين نزلاء « بنسيون » حقير :

طالب جامعي فقير طموح يدعى « أوجين دي راسستنيالك » ، ورجل يناهز الأربعين من عمره قوى البدن ، غامض الشخصية ، يدعى « فوتران » ، وشيخ بائس يسخر منه الجميع ، ولكنه لا يفكر الا في ابنتيه وهو الأب « جوريو » . ويلقى « راسستنيالك » في منتديات الطبقة الراقية ابنتي « جوريو » ، الكونتسية « أنا سستازي دي رستو » والبارونة « دلفين دي نوسنجن » ، ويخبرهما ، فاذا هما تجسمان أمامه الفرور والآثرة ، هذين الحافزين اللذين يدفعان المجتمع بأسره نحو المتعة وحب الظهور . ويغازل « دلفين » لعلها أن تمهد له الطريق الى المجد ، ولكن « فوتران » يشير عليه باتباع الطريق الأقصر ، طريق الجريمة لا طريق الامالة ، قائلا له : « ينبغي أن تلوث يديك لكي تشبع : تلك هي أخلاق عصرنا » . بيد أن

الشرطة تلقى القبض على « فوتران » ، فليس هذا الرجل المنكر سوى المجرم الذائع الصيت « جاك كولان » زعيم أرباب السوابق ، وهكذا يخلص « راستنيك » من تأثيره المنكر . وفي الوقت نفسه ، ينزل الأب جوريو آخر أمواله لاسعاد ابنتيه اللتين لا تمسكان عن اللهو والتبذير ، حتى اذا مات في ضنك الفقر لم تحضر هذه ولاتلك لشهود لحظات احتضاره التي بات طوالها يناديهما ويخاطبهما ويناجيهما ويباركهما ! ويشترى له « راستنيك » الكفن ، ويدفنه في مقابر « بير لا شيز » . اذ ذاك يوقن الفتى أن الأسرة غش وغبن ، وأن الثورة بأسلوب « فوتران » أمر محال ، فيختار الكفاح ، وهو شريعة المجتمع ، وينظر الى باريس من أعلى الربوة ويتحداها ، ثم يهبط اليها . انها اذن ثلاث قصص لا قصة واحدة .

أولا : قصة الأب جوريو وابنتيه ، وهي من « مشاهد الحياة الخاصة » .

وثانيا : قصة راستنيك وعلاقته بدلفين ، وما دلفين الا احدى صور « المرأة المهجورة » في أدب بلزلك .

وثالثا : قصة فوتران ومطاردة الشرطة له والقاء القبض عليه .

وهي قصة بوليسية ممتازة ، فان بلزلك يخفى عنا شخصية فوتران ، ويتركنا مع نزلام « البنسيون » الذين ينجس بعضهم على بعض ، ويكتن كل منهم ماضي وحاضره على الآخرين . أو ليست هذه الرواية مجموعة من الألفاظ يلذ للقارئ أن يحلها ؟

★★★

وقد رأينا كيف اعتاد أديبنا رصد المقدمات الطوال يمهدها لقصصه : بالرغم مما لهذه المقدمات من وظيفة هامة في التصوير والتاريخ والدراسة الاجتماعية ، فانها خطأ فني في صياغة القصة

إذا جاوزت حدا معلوما . وقد أحس بلزأك ما في تلك الصبغات
الثقيلة البطيئة من خطر ، فوفر العناء على قارئه في كثير من قصصه ،
ووفق إلى ابتكار افتتاحيات بارعة رشيقة جذابة . ولعل الطف
هذه الافتتاحيات ذلك المشهد الفكاهي الذي تبدأ به رواية «سيزار
بيروتو» (César Birotteau) فنحن في مخدع الزوجين وقد
انتهى الليل ، تستيقظ «مدام بيروتو» ، وتتفقد زوجها فلا تجده
في مكانه من الفراش ، وتدير بينها وبين نفسها حديثا نعرف من
خلاله شخصية الزوج ، ثم يؤزها القلق فتنهض ، وتجد الرجل في
ثياب الليل يذرع الدار ويقيس أبعاد الغرف ويقدر مساحة البيت ،
لأنه أزمع أن يوسع مسكنه ودكانه وتجارته ، فقد اهتدى إلى
مشروعات الأثراء وخبثته زينة الحياة الدنيا .

والقارئ إذ يتتبع حوار الزوجين الطريف يعلم ما لم يكن يعلم
من أخلاقهما وأفكارهما وحالهما ومستقبلهما ، دون مشقة ودون
جهد .



والحق أن عناصر التمهيد البلاغي ثلاثة : الوصف ، والحوار ،
والعودة بالقارئ إلى الوداء .

وقد استعرضنا أمثلة للوصف وللحوار ، وبقي أن نلم بفن
بلزأك في استعادة ماضي أبطاله . . . هذه قصة «أسرة مزدوجة»
(Une double famille) في شارع هاديء صامت من شوارع
باريس ، تطل من شرفة منزل قائم الجدران فتاة قد اتخذت من
التطريز وسيلة لكسب عيشها ، وتلاحظ كل يوم بين السابلة رجلا
غامضا يمر في مواعيد ثابتة ، وسرعان ما تنشأ بينهما علاقة ، ويولد
لهما أبناء ، وتضطرب الحياة من حولهما . . . وهنا ، بعد هذا
التشويق المتصل ، ياذن بلزأك لقارئه بالنفوذ إلى سر الرجل من

وراء ستار الغموض الذى أسدله عليه خلال الصفحات الأولى ، وفى عبارة واحدة ، يرجع بالقارئ اثنى عشرة سنة الى الوراء قائلا : « ولتفهم ما تنطوى عليه مقدمة هذا المشهد من عبرة ، ينبغى أن ننسى لحظة هؤلاء الأشخاص ، وننصرف الى سرد الأحداث السابقة.. فى أواخر سنة ١٨٠٦ ، كان أحد المحامين الشبان ... »

ويروى لنا نشأة الأستاذ « جرانفيل » المحامى وقصة شقيقه بزواج امرأة تقية مسرفة فى التقوى تنحرف بها شدة الورع عن روح الدين ، مما دعاه الى البحث عن السعادة العائلية مع امرأة أخرى هى « كارولين كروشار » التى كانت تطل عليه من نافذة البيت القاتم الجدران فى ذلك الشارع الهادى الصامت .

على أن تشويق القارئ أو تسليته لم تكن هم بلزك الأكبر ، لقد كان فنانا ينشد الجمال فى صياغة قصصه فوق هذا كله ، ولذلك كان يرقى بها تارة الى آفاق الشجر العالية ، ويبث فيها تارة حماسة الملحمة البليغة ، ويبعث فيها تارة أخرى حياة المأساة المسرحية المؤثرة .

وما كان الجمهور فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر يطلب من القصص افكارا جديده ولا أسلوبا جميلا ، وإنما كان يطلب روايات حافلة بالمغامرات الممتعة ليس غير . كانت القصة لونا من ألوان الأدب الرخيص ، لا يطمح قارئها ولا كاتبها الى مثل الفن الرفيع ، ولكن بلزك انتشلها من هذا الحضيض ، وخلع عليها حلل البيان سائفة أنيقة بديعة الوشي .

وكم كان يبذل من جهد فى تجويد العبارة وانتقاء اللفظ ! ان مخطوطاته المحفوظة فى « مجموعة لوفينجول » (Lovenjoul) تشهد بدأبه على تنقيح أسلوبه فى كل لحظة ، فانه يستبدل بكلمة كلمة وبجملة جملة وبفقرة فقرة ، حتى بعد ارسال نصوصه الى المطبعة .

وقيل انه كان مضطرا الى هذا التصحيح المتلاحق لانه كان سريع الانتاج يستعجله دائنوه ، وسرعة الانتاج تقتضى الاهمال وقلة الاتقان .

والحق ان تلك شائعة سطحية خلقت بصيت بلزاك ، لاتعتمد على اساس وطيء من التحليل الادبى ، وقد نفاهما أخيرا بعض النقاد المتحدثين المستنيرين ومن بينهم الأستاذ «جويون» الذى يؤكد ان صاحب «الكوميديا البشرية» لم يكن طبع القلم سلس التعبير بل كان بطبيعته يعانى كثيرا من الصعوبة والمشقة فى الكتابة .

ومهما يكن من أمر تلك الخصومة ، فالثابت ان بلزاك كان شديد الحرص على جمال أسلوبه ، دائم العناية بصقل قوالبه الفنية .

وكان فنانه فى اخراج قصصه ، يعرف كيف ينسق عناصرها وأجزائها المختلفة بحيث تتقابل وتتوازن وتتجاوب وتترك فى نفس القارئ أروع اثر ، كان يصمم رواياته تصميم مهندس بارع ،

ونستطيع ان نستقرئ منه هذا فى « المشاهد من الحياة الخاصة » (Scènes de la vie privée) وهى مجموعة من ست قصص نشرها فى مجلدين سنة ١٨٣٠ ، عندما خلق صناعته ، واتخذ مذهبه الشخصى فى تخطيط القصة . انه يشيدها بطريقة التعارض ، يقول فى قصة « عائلة مزدوجة » : « واذا ذاك يؤلف هذان الجزءان حكاية واحدة قد أنتجت قصتين متميزتين » : فنحن نرى صورتين لشخص واحد ، لوحتين متقابلتين لحياته ، حياته فى بيته الشرعى وحياته فى بيت المظرة « كارولين كروشار » . وكذلك فى رواية « محل الخردوات » (Lamaison du Chat-gui-pelote) - نرى صورتين متضادتين لحياة « أوجستين جيوم » : حياتها الوديعه الهادئة اول

الأمر في دكان أبيها المتواضع ، ثم حياتها المريرة المضطربة بعد زواجها الرسام تيودور دي سوميرفيو .

ولا يبدو كلف بلزак بالتعارض في رسمه الخطوط الرئيسية لبناء القصة فحسب ، بل يمتد الى صفحات الوصف وتقديم أشخاص الرواية ، فهو يقسمهم في أغلب الأحيان فريقين ، كاسرتي «جراسان» « وكروشو » اللتين تتنافسان في قصة « أوجيني جرانديه » على يد الوارثة أوجيني ، أو كطائفتي الصحفيين اللتين يتردد لوسيان بطل « الأوهام الضائعة » (Illusions perdues) في الانضمام الى واحدة منهما : فهناك عصاة المرتقة الذين يتبدلون فنهم ويبيعون ضمائرهم ، وهناك جماعة الأدباء الشرفاء الذين يؤمنسون بالقيم العليا . ويدافعون عنها وعلى رأسهم دارتيز .

ان البيئات والخلاقي والمواقف تتعارض دائما في كل كتاب من كتب « الكوميديا البشرية » ، تربطهما جميعا وجوه شبيه ووجوه اختلاف عامة وخاصة ، وتشحنها في كل حين قوى هائلة من التجاذب والتنافر كأنها الأقطاب المغناطيسية . وينتظم هذا الازدواج في وحدة فنية رصينة ، كتلك التي نجتليها واضحة ناصعة في « قصة مجد وانحطاط سيزار بيروتو » . وهي قصة زاخرة بتباين الأشخاص والأجواء ، ولكن التعارض لا يهزك بالتأثر مثل ما يهزك في الصفحات الأخيرة حين يظهر تاجر الروائح العطرية « هذا البطل من أبطال الأمانة في التجارة » ، وقد استرد شرفه بعد افلاسه ، فيعود الى داره الأولى ، ويدخل قاعة الاستقبال التي طرد منها طرد الهوان قبل بضع سنين ، ويرى الجدران وعليها الطلاء نفسه ، ويلقى وجها لوجه النساء أنفسهن وكبار المدعوين الى حفلة الراقصة ، أنفسهم ، ويسمع الألحان الموسيقية نفسها ، فتسرى في أعماقه دهشة رهيبة ، يأخذه طرب عظيم ويموت من فرط السعادة ، ان لرجع الصدى

وقعا ساحرا في ختام القصة ، وما أروع هذا التعارض الذي يرفع
من كل ناحية وفي كل اتجاه عباب الخضم البشرى السحيق الأغوار!
أو لم يكن بلزأك رساما ممتازا في توزيع الأضواء والظلال على صقال
لوحاته الخالدة ؟

هو القصاص الذي جمع صدق الحقيقة وسحر التشويق
وجمال الفن في القصة ، فخلقها خلقا جديدا ، وجعل منها لونا
أديبا شريف المنزلة جليل القدر : فقبل بلزأك كان الأدباء ينظرون
الى القصاص نظرة ازدراء ، ولم يبلغ أمثال « شاتوبريان » مكانتهم
الرفيعة في فرنسا بفضل ما نشروا من روايات ، بل بفضل مصنفاتهم
الجامعة أو دواوين شعرهم ، أو اشتراكهم في الحياة السياسية .
أما بلزأك فقد سما بالقصة ، إذ اتخذ مادتها من التاريخ والاجتماع
والفلسفة ، وعالجها بأسلوب القصيدة والملحمة والمسرحية ، ونشر
فيها ألوان الرسام وأنغام الموسيقى ، وأنطق حياته بين أبطالها يخلقهم
ويحركهم ويخاطبهم خطاب الحي للأحياء ، ويؤمن بعض الرواة أنه
كان يهدى في سكرات الموت ، حين أعيت علة نطس الأطباء له قائلا
إن كانوا حول فراشه :

— استدعوا لي « بيبانشون » !

وبيانشون هذا طبيب من أبطال « الكوميديا البشرية » وإن
صدقت تلك الرواية المؤثرة فإنها الدليل الرائع على الوحدة بين أدب
بلزأك وحياته .

ختم القصة

من العاطفة المضطربة والأطماع الخالصة والكفاح العنيف والآلام الإنسانية المختلفة ، نسج بلزاك قصصه ، ومن هذا كله نسج القدر حياة بلزاك فكان أبرع منه قصاصا . وقد ألمنا بأهم مراحل حياة بلزاك ، تلك القصة الكبيرة الرائعة التي ألفها القدر ، وبقي لنا الآن أن نشهد فصلها الأخير ، وهو أكبر مشاهدتها واروعها .

ذات صباح من شهر يناير سنة ١٨٤٢ ، تلقى بلزاك رسالة مجللة بالسواد ، تخبره فيها مدام هانسكا بوفاة زوجها ، فوقع النبأ عليه يرثى وسلاما . وبلغ من تأثره اذ رأى العقبة الكاداء في سبيل سعادته تنهار وتزول ، أن ظل مذهولا اربعا وعشرين ساعة ، محتبسا في غرفته لا يريد أن يخاطبه أحد . واستشعر ما في بسمة القدر له من خفض الحياة ولين العيش ، فاضرب عن العمل المرهق ، وراح ينام اربع عشرة ساعة يوميا وهو الذى لم يكن يرقد اطول من خمس ساعات او ست . اضرب عن الجهاد ، وكمن فى قلبه يستروح الهناء الذى ينتظره بعد بضعة أشهر ، فقد اعتادت ملكات التخيل والخلق فى نفسه ان تجعل من مستقبله حاضره ومن افكاره وقائعه . . .

على ان تلك الرسالة المجللة بالسواد ، تلك الرسالة الحزينة المبهمة ، كانت تنم عن فتور كاتبها وتحفظها . ذلك ان مدام هانسكا لم تكن تستطيع ان تقترن ببلزاك الا بعد ان تصفى تركتها

وتزوج ابنتها « أنا » . وقد اقنعت صاحب « الكوميسديا البشرية
بوجاهة عذريتها هذين عندما مضى الى لقائها في بطرسبرج ، في يوليو
سنة ١٨٤٣ . ويقول بلزاك في وصف ذلك اللقاء : لم اكن قد
رايتها منذ فيينا ، ووجدتها في مثل ما كانت عليه من الجمال والشباب .
ومع ذلك فقد انقضت على هذا العهد سبع سنوات ، أنفقتها في أرضها
في وسط صحارى القمح كما أنفقتها في باريس وسط صحراء البشر
الشماسة .

واستقبلتني استقبال صديق حميم ، فعددت الساعات التي لم
أقطعها بالقرب منها ساعات تعسة ، باردة حزينة . . .

ولكن « الأجنبية » كانت ترجىء الزواج لعل أخرى لم تكن
تبوح بها لعاشقها المتيم الصبور . ما من شك في انها كانت ترحب
بان تهجر ديار أوكرانيا الموحشة الى مغانى باريس الفاتنة ، غير انها
كانت اقل ترحيبا بان تشاطر بلزاك همومه وان تنضم الى أسرة عرفت
من صغائرها الشيء الكثير . وما من شك في ان أهلها الذين اغتفروا
لها على مفضض صلتها من بعيد بلزاك كانوا يابون عليها ، اعتزازا
بارومتهم ومجدهم التليد ، هوان الاقتران بهذا الكاتب الشعبى ، وقد
أضعفت معارضتهم العنيدة من حياء ، لانها كانت قد جاوزت طور
الحب الملح الذى يزيده العذل والتحرير شدة والحاجة .

وادرى بلزاك ذلك المنطق ، فلم يجادل ولم يسأل شيئا ، وانما
مضى يضرب حصارا مكينا حول هذا القلب المتيم . اتاها من كل ناحية .
ولم تكن رسائله ازخر عاطفة وأبرع رميا منها في ذلك الحين .
هاهو ذا يحاول ان يفري كبرياءها . ومن لا تتمنى ان تصبح زوجة
بلزاك ؟ « أربعة رجال ستكون لهم حياة عظيمة : نابليون وكوفيه
واوكونيل واريدي ان أكون الرابع .

وهاهو ذا يحاول ان يفري غرورها . فقد كتبت اقصوصة ثم
أحرقتها ، ولكنها روت له موضوعها فإقتبس منه قصصة ((مودست
منيون)) وانباها بان « اقصوصتك قد صارت رواية فخمة » . ولكن
تهليله وتكبيره وثناءه العاطر على عبقرية مدام هانسكا لم تحدث الأثر
المنشود . فما مودست منيون الا فتاة جامحة الخيال تراسل الشاعر
كاناليس ، على غير علم من والديها ، فيؤنبها أبوها قائلا : « اشرحى
لى يابنيتى كيف تستطيع فتاة تحبها امها حبا جما أن تقدم على اثم
الكتابة لرجل مجهول دون أن تستشيرها ؟ كيف لم يقل لك عقلك
ولم تقل لك نفسك - اذا أعوزك الحياء - ان مثل هذا التصرف
معناه الارتقاء فى احضان رجل ؟ » وقد استاءت مدام هانسكا من هذه
السطور التى تندد برسالتها الاولى الى بلزاك ، واضطر بلزاك الى ان
يؤكد لها حسن نواياه . وحين اهدى اليها قصة « البير سافاروس »
اجابته بازدراء : « انه كتاب رجل » : بيد انه روى فيه حكايتهما
وكان يقدر انها سوف تتأثر اذ تقرا فى اعترافات بطله : « ان جهاد
الناس والاشياء الذى صببت فيه بلا انقطاع قوتى وطاقتى ، والذى
طالما استنفدت فيه حوافز الرغبة ، قد أضنى نفسى . فعلى الرغم من
مظاهر الفتوة والصحة ، أحس اننى مهدم . وكل يوم يمر يذهب
بقطعة من كيان حياتى . لم يعد لى من القوة والقدرة ما يطبق غير
السعادة . وهذا بعينه ما اثار امتعاض مدام هانسكا ، فهى بعبارتها
« انه كتاب رجل » تريد ان تقول : انه كتاب رجل اثر كجميع الرجال
لا يفكر الا فى نفسه .

وهاهو ذا يحاول أن يفريها بجمال الاحسان الذى ستؤديه له
يوم تتزوجه . فسوف يصبح منذ ذلك اليوم جديرا بان يتبوا كرسيا
من كراسى مجلس النواب ، وكرسيا من كراسى الاكاديمية الفرنسية .
فكم بات يعلم بان يكون له فى باريس « صالون » عظيم يتردد عليه
أقطاب السياسة ، وتدير فيه الحديث اميرته هذه العريقة النسب ،

وكم بات يعلم بأن يسدد ديونه وأن يصيب من الجاه عالا تتردد معه
الأكاديمية في أن تفسح له مكانا بين أعضائها الخالدين ! لقد وضع
آمال العمر بين يديها وأرسل يهيب بها : « اكسبي قضيتك اذن
تكسبي قضيتي ! » ذلك أنها كانت تتابع قضية تتعلق بممتلكاتها .
ولما كان بلزاك خيرا بشئون القضاء وتسجيل العقود ، فهو يسخر
معارفه القانونية لخدمتها ، لعل في منقبته هذه منفعة لها ، رابطة
جديدة توثق الروابط القديمة التي ما برحت عاجزة عن توحيد حياتهما .
وها هو ذا يحاول أن يغريها بشبابه الناضر ، فيروي لها كيف
ادهشت حيويته زوجة المثال « دافيد » حين جلس ازاءه لينحت له
صورة ، قالت :

ـ انك في الثلاثين .

فاجابها ـ بل في الرابعة والأربعين !

فوثبت من فوق أريكتها تسأله ـ بآية قدرة ؟

واجابها ـ اه ذلك سرى لا أبوح به !

ولكنه يبوح به لدام هانسكا ، فان شبابيه ينبع من قلبه ، « وهذا
السر هو حب حواء . . . انى أصغر سننى بخمس عشرة سنة ، مثلك
تماما يا عزيزتى » اما هى فتجيبه بأن قلبها قد مات ، فيحتج عليها
ويستنكر ما تقول . بيد أنه لا يخفى عنها ما ينتابه من الحزن والكآبة
والخوف من أن يبلغ السعادة لا غبا منهك القوى لا يستطيع أن
يستمتع بالهناء الموعود . . .

هكذا راح يضرب على أوتار فؤادها ، وثرى من بعد وتر ، يداعب
تارة كبرياءها وتارة غرورها وتارة كرمها وتارة منفعتها ، راجيا أن
يقضى على مقاومة هذه المزاة التي استسلمت له يوما رغم الحوائل
الاجتماعية ، والآن تستسلم له دون التحفظ السابق الا أنها ترجى

دائما اعلان حبها رسميا . وكاد يتحقق رجاؤه سنة ١٨٤٦ ، فقد كانت مدام هانسكا تنتظر ولدا ، ولم يكن بد من عقد زواجها ، ولكن حادثا ألم بها بدد ذلك الرجاء . ويبالغ « لوفانجرول » في كتابه « رواية حب » فيرد الى تلك المغامرة ما اصاب قلب بلزاك من علة اخذت تشتد على مر الأيام ...

على أن بلزاك لم يستيئس ، فياطاما واجه الفشل في شبابه بالعزيمة والجلد . لقد أعد كل شيء . اشترى دارا فاخرة بشوارع فورتونيه (الذي أطلق عليه فيما بعد اسم بلزاك) ، وأثثها بأذن اثاث ، وجعل منا عشا جميلا ومتحفا انيقا . وزاره في هذه الدار الشاعر « تيوفيل جوتييه » ، وأبدى عجبه من هذا الترف الذي يتناقض مع ما كان يدعى بلزاك من فقر :

- اذن لقد انفتحت لك كنوز « ألف ليلة وليلة » . والناس على حق في أن يحسبوك من أصحاب الملايين .

- اننى الآن أفقر مما كنت طيلة حياتى . وليس لى شيء من هذا . فقد جهزت البيت لصديق منتظر . وما أنا الا حارس الدار وبوابها .

يا للأمل الوهاج لا تنطفىء جذوته ! ويا للهمة الجبارة لا ينال منها رهق العمل وجنون السرف وهول النضال ! لنلق نظرة أخيرة على أدب بلزاك . ان إنتاجه فى هذه الحقبة يروعنا بغزارته وتدقيقه وتنوعه . دع « المجلة الباريسية » التى أصدرها سنة ١٨٤٠ ، واحتجبت بعد العدد الثالث - وان كانت أعدادها هذه الثلاثة مجلدات قيمة دبجها بلزاك وحده وضمنها مقالات هامة فى النقد الادبى - والتفت الى ذلك الفن الجديد الذى اقبل عليه عام ١٨٣٨ ، فن المسرح والتمثيل :

من الغريب أنه بدأ بمحاولات فاشلة كمحاولاته القصصية الاولى.

فلا خبرته السابقة ، ولا معرفته بالخلائق والمجتمع استطاعت أن تهمده بدعائم متينة يقيم عليها مسرحه . فروايتة الجامعة ((مدرسة البيوت)) لم تمثل . وروايتة الثقيلة ((فوتران)) قد منعت السلطات تمثيلها لأن المخرج أعار بطلها محيا الملك لويس فيليب وحركاته ، وأر قد مثلت لباءت بالفشل ، وأما روايتة الثالثة ((موارد كينولا)) ، التي تقدم في انشائها تقدم ((القرصان أرجو)) على ((وارثة بيراج)) ، فقد اجتشد أصدقائه بملعب الأوديون في الحفلة الاولى لتمثيلها والهباوا أكفهم بالتصفيق لشاهدها ولكن زئير الجمهور الساخط طفى على تلك المجاملة . ولم تكن ((بامبلا جيرو)) خيرا من سابقاتها ، ولكن ((زوجة الأب)) تصيب بعض النجاح ، وعلى أثرها يتنبأ تيوفيل جوتييه بلزأك بمستقبل زاهر في عالم المسرح . وسرعان ما تصدق نبوءة جوتييه إذ يكتب بلزأك مسرحية ((مركادية)) ، ويوفق فيها لادخال الحياة الواقعية الى المسرح كما أدخلها في القصة ، دون اخلال بقواعد الفن التمثيلي. وسوف يحاكي المحدثون شخصية ((مركادية)) رجل المال الذي يخدع الجميع حتى يروح ضحية بعض ضحاياه . غير أن بلزأك لم يسمع تحيات الإعجاب بهذه الرواية الناجحة ، فقد مثلت بعد وفاته بسنة . ومن يدري ، لو قد امتدت حياته عشر سنين أخرى ، أما كان خليقا بأن يتحف المسرح بآيات بينات تضارع روائع الكوميديا البشرية ؟

وكان في الوقت نفسه يواصل انشاء ((الكوميديا البشرية)) . فنشر سنة ١٨٤٦ قصتين ، ونشر سنة ١٨٤٧ قصتين ، ونشر سنة ١٨٤٨ قصة أخيرة . أجل قصة بلزأك الأخيرة - ولم يكن ذلك جناوز التاسعة والأربعين من عمره ! وليست هذه القصة من أعظم ما كتب ، ولكن فيها جمالا ونبلا ورحمة تجل منها خير خاتمة لأدبه . فقد عرضت علينا المهزلة الانسانية مشاهد الرذيلة والجريمة واللؤم ، حتى بتنا نتساءل : ما الذي عساه أن يحفظ المجتمع من الانهيار اذا

كانت تنخر فيه غرائز الشر ويتفشي في جميع أركانه الخبث والفساد. وللإجابة عن هذا السؤال يقلب بلزك اللوحة ، ويدعونا للنظر الى ظهرها ، معنونا قصته « وراء التاريخ المعاصر » . والحق أن المجتمع ما زال قائما لم يهلك ، لأن هناك ، وراء المساوىء التي نراها ، فضائل لا نراها ، فضائل حية عاملة ، جماعة من أهل الخير تحالفوا على صنع المعروف واسداء العون والتضحية من أجل البعيدين والقريبين .

وتتلخص هذه القصة في أن فتى يدعى « جودفروا » مر يوما ، وقد سئم الحياة التي أصبح لا يجد لها معنى ، أمام بيت عتيق في أحد شوارع باريس القديمة ، وطرق الباب إذ قرأ لافتة تعلن عن مسكن الأيچار ، فادخل الى حيث اجتمعت حلقة من رجال أجلاء ، على وجوههم سمات الحكمة والورع ، وتتوسطهم سيدة مسنة نبيلة هي « مدام دي لاشاتيرى » . ويعلم من أمر هذه الجماعة مما يشير اعجابه بها ورغبته في الانضمام اليها . فهؤلاء هم « اخوان المواساة » يحسنون الى المتألمين في الخفاء ، ولهم أطباء وأمناء في كل حي من أحياء المدينة . والجزء الأول من القصة - الذي يشبه وصف البيت العتيق واستيقاظ نفس « جودفروا » في فجر حياة كريمة والأنباء التي يروونها له ومطالعته كتاب « التشبه بالمسيح » - يخلف فينا شعور التأثر ، وشعور الاكبار لتلك القلوب العامرة التي عرفت الألم ففدا همها أن تخفف آلام الأشقياء . والجزء الثاني قصة مدام دي لاشاتيرى . لقد زوجت ابنتها رجلا من طبقة الأشراف فافسد حياتها، فاتخذت لها عشيقا من أبناء الشعب كان على صلة بعصابة «الوقادين» التي اختصت أثناء الثورة الفرنسية في تعذيب الأشراف وتحريقهم للاستيلاء على أموالهم . وحين تقبض السلطات على العصابة يحمل النائب العام « بورلاك » على تلك السيدة وابنتها حملة شعواء ، فتسجن السيدة طويلا ، وينفذ حكم الاعدام في الفتاة . أما الآن ، فقد أخت الأيام على النائب العام بورلاك ، وأمسي آتعب البشر ،

حتى اضطر الى أن يعيش متنكرا ، حاملا اسما غير اسمه ، باذلا آخر ما ملكت يده في علاج ابنته المريضة . وتقف مدام دي لاشاترى على رؤسه فلا تمتنع عن افاتته وانقاذ حياة ابنته ، على الرغم من أنها مازالت ترى أمام عينيها صورة وحيدتها على المقصلة . وعندما يعرف بورلاك ، من قبيل المصادفة ، اسم المحسنة الكريمة يهرع اليها يستغفرها نادما فتغفر له .

واكبر الظن أن بلزاك كتب آخر صفحات تلك القصة في جناحه الخاص من قصر فركونيا بأوكرانيا حيث نزل منذ سبتمبر سنة ١٨٤٧ لدى مدام هانسكا . كانت « أنا » قد تزوجت ، بل وكانت قد قامت وزوجها برحلة جميلة اصطحبا فيها مدام هانسكا وبلزاك . وكان المقرر أن يعود الاديب المنهك الى باريس في شهر ابريل ، ولكن أعمالا ذات خطر اضطرتة الى العودة في شهر يناير . ولما لم يفلح في تسديد جميع ديونه ، رجع الى أوكرانيا في سبتمبر سنة ١٨٤٩ ، بيد أنه جاء في هذه المرة كاسف البال مسلوب القوى سقيما ، وقد لقيه في أحد الميادين - قبيل رحيله - فكتور هوجو ، فلاحظ أنه كان يتنفس في غناء ويشكو من صدره . وأي بنية كانت تستطيع أن تحتل مثل ذلك الارهاق المتصل ؟ ورسائله التي كتبها في تلك الأيام تسجل استفعال علته ، فهو يذكر أن القهوة أصبحت عاجزة عن تنبيهه والتأثير على أعصابه ، وأنه أصبح كثير الشرود حسير البصر ، وأن الأطباء يخافون على دنياه وعلى قلبه ..

لقد جاء في هذه المرة ليحسم أمره ، ليظفر بحوائه أو ليفقدها الى الأبد . وهذا بعض ما كتب لأخته : « لا أستطيع أن أعيش الا حيث تكون مدام ايغلين . فبفعل الزمن والصلة ومحاسنها أصبح ذلك ضروريا لوجودي . لم يعد في فرنسا مجد ولا مطمح ولا نجاح : انها هي ، بالنسبة لي ، هذا كله .. » ولكن مدام هانسكا مازالت تتعلل بانجاز قضايها وشتون أسرتها . ويكتب بلزاك لأخته : « انت

تفهمين أن مدام هانسكا التى تعيش هنا غنية «محبوبة مبدولة» ، تتردد في الذهاب الى مكان لا ترى فيه غير الاضطراب والديون والنفقات.. وحماة تزجر أصغر أبنائها البالغ من العمر خمسين عاما ! «

غير أن اهتمامه بتنسيق داره الفاخرة بباريس واعدادها في أجمل صورة لم يفتر ولم ينقطع .. كان كبير الأمل في أنه عائد يوما الى هذه الدار ومع عروسه البعيدة .. لذلك توالى رسائله لأمه التى كلفها بمهمة الاشراف على كل شيء هناك .. هل عاقت الستائر؟ هل زيتت المخدع ؟ هل درست الخادم « فرنسوا » على طريقة تنظيف المصابيح والثريات ؟ ..

ولكن المرض لم يرحمه .. أصابته نزلة شعبية حادة مع تضخم في القلب ، وكادت تصيبه حمى مخية .. وفي فبراير سنة ١٨٥٠ بات قلبه من الضعف بحيث ارتاب الجميع في امكانه السفر الى فرنسا .. كان اذن على شفا الهلاك حين كتب لأمه في ١١ مارس : « لقد جهز كل شيء للأمر الذى تعرفينه .. وفي حالة التوفيق ، سيكون ذلك في اليوم الرابع عشر من هذا الشهر ، في الساعة السابعة صباحا » .. وفي ١٥ مارس ، كتب اليها ؟ « أمس ، في الساعة السابعة صباحا ، ولله الحمد ، أقيم حفل زواجى وبورك في كنيسة سانت بارب دي برديتشيف » .. فاجابته : كم أبهجتنى رسالتك ! .. ها أنت ذا في ملء هنالك اذ فى حوزتك أمراك المحبوبة حقا ، تلك التى عبدتها منذ ذلك الأمد الطويل ، ولقد استقرت سعادتك ، فاتها السعادة التى ستمتد معك حياتك كلها .. يا عزيزى أونوريه ، انى لسعيدة اذ تحقق زواجك قبل أن أموت » ..

وانطلق العروسان الى فرنسا .. وكانت رحلة شاقة .. فقد نقلت وطأة المرض على بلزاك عند مدينة « درسن » .. وكان الليل قد جن حين بلغا باريس ، وأخيرا وقفت مركبتهما في شارع فورتونيه،

أمام الدار الأنيقة . ونزلا ، وطرقا الباب ، فلم يفتح لهما أحد ولم يجبهما أى صسوت ، على الرغم من أن النور كان ينبعث من بعض النوافذ . فاضطرا الى التماس من يكسر لهما القفل . ودخلا فوجدا الخادم في ذهول عجيب ، ينظر إليهما نظرات بلهاء . ياللمشؤم! لقد أصيب الفلام فجأة بالجنون ، بين اللحظة التي غادرت فيها أم بلزاك البيب واللحظة التي وصل فيها العروسان ..

وسرعان ما دب الخلاف بين الزوجين ، وسرعان ما اشتد تشاجنهما وتنافرهما . ذلك أن « الأجنبية » ظلت أجنبية عن هذا الرجل . هي لم تتزوجه وفاء لحبه ولا إعجابا بعبقريته ، بل تزوجته رحمة به واشفاقا عليه عندما أكد لها الأطباء أنه لن يعيش أطول من بضعة أشهر . لعل آلام المرض أخرجت بلزاك عن أطواره ، ولعل عناء التمريض أخرجها هي عن أطوارها . مهما يكن من شيء ، فقد كانت الحمى تملأ جو البيت . وهكذا قضى القدر على هذا الرجل وهذه المرأة بأربعة أشهر من الندم المر على الحب الذي أنفقا ثمانية عشر عاما يظنان أنهما يتبادلانه صافيا عذبا جميلا . وهكذا كان أقسى ما في تلك المهزلة الانسانية مشهدها الأخير ..

وفي أوائل أغسطس زار تيوفيل جوتييه ، وقد أزمع السفر الى إيطاليا ، صديقه بلزاك ، فلم يجده إذ كان قد خرج في عربته ليدفع المكوس عن حقائب وردت له ، وقبل أن يغادر الشاعر باريس تسلم رسالة شكر على زيارته أملاها بلزاك على زوجته ، وعبر فيها عن أمله في الشفاء ، وأضاف إليها بخط يده هذه الكلمات : « لا أستطيع القراءة ولا الكتابة » .

وفي ١٧ أغسطس أقبلت مدام فكتور هوجو لزيارة مدام بلزاك، ورجعت تنبئ زوجها بأن بلزاك يحتضر . وكان الشاعر الكبير يتناول عشاءه ، فارتدى من الفور حلتاه ، واستقل مركبة أوصلته الى شارع فورتونيه ، وطرق باب الدار . وقد وصف هوجو ليلته تلك وصفا

رائعا في كتابه « أشياء رأيتها » ، قال « كان الشارع مقفرا . ولم يجرى أحد » . طرقت مرة أخرى ، فانفتح الباب ، وبدأت لي خادم معها شمعة وسألتني : ماذا يريد سيدي ؟ وكانت تبكي . فذكرت لها اسمي « . وعبر الشاعر الفناء الضيق الطويل وأدخل الى غرفة الاستقبال التي كانت بالطابق الأسفل ، وكانت تزدهان بكثير من اللوحات النادرة وبتمثال بلزاك الذي صنعه « دافيد » . وقدمت امرأة أخرى فقالت له : « انه يموت . لقد عادت سيديتي الى جناحها . وانفض عنه الأطباء من أمس » . ومضت المرأة تلتمس مسيو سورفيل (زوج أخت بلزاك) ، ولبت الشاعر مكانه ينتظر . « كانت هناك شمعة واهنة لا تكاد تلقى ضوءا على أثاث الصالون الفاخر » . وكان التمثال المرمى منتصباً دون جلاء في هذا الظلام كأنه شبح الرجل الذي أشرف على الموت . وكانت رائحة جثة تملأ البيت » . وأكد مسيو سورفيل لفكتور هوجو ما قالت له الخادم ، « فسألت أن أرى مسيو دي بلزاك . وعبرنا دهليزا ، وصعدنا سلما مكسوا بسجاد أحمر ، مزدحما بتحف فنية . ثم لمحت بابا مفتوحا ، وسمعت حشرة عالية رهيبة » . كان بلزاك في سريرته ، مسندا الى تل من الوسائد الحريريّة ، قائم الوجه ، جاحظ العينين . وكان الى جانبي السرير خادم ، وامرأة عجوز لا يسميها هوجو وأكبر الظن أنها كانت أم بلزاك . ويقول هوجو : « في هذه الغرفة بعينها - زرت منذ شهر . كان مرحا ، مفعما بالأمل ، لا يشك في بلاله ، ويريني ضاحكا ما بجسمه من ورم . ولما تركته ، رافقتني حتى هذا السلم ، وهو يمشي في عناء ، وأهاب بزوجته : « لا تنسي أن تعرضي على هوجو جميع لوحاتي » . »

« . » ونزلت ، حاملا في فكري ذلك الوجه الشاحب . وعند مروري في الصالون وجدت التمثال ساكنا ، جامدا ، رقيقا ، مشعا في غير جلاء ، فقارنت الموت بالخلود » .

وكانى اسمع أقدام الشاعر العظيم الـ يبرح الدار يتردد وقعها
على أرض الفناء الضيق الطويل في تلك الليلة الدالكة . انه أخوه
في العبقرية ينأى به بعد الأطباء والأهل - عما بات من هذا الرجل
الخالـد ملكا للفناء .

وفي فصحى الأربعاء ٢١ أغسطس سنة ١٨٥٠ شيعت جنازة
بلزاك ، كان موكبا جرارا اشترك فيه هؤلاء الذين اخلصوا للفقيد
الحب وأولئك الذين ناصبوه العداة ، هؤلاء الذين هزمهم الاعجاب
بأدبه وأولئك الذين هزمهم العجب من أن يموت ذلك الرجل القوى
في الحادية والخمسين من عمره .

ولو لم يشيع بلزاك غير خلقه الذين اخرجهم من عقله ومن قلبه ،
لامتلات بهم شوارع الحى ومسالك الجبانة ، ولكان موكبا رائعا
تتمثل فيه جميع فئات الناس ، اصحاب كل مهنة ، واصحاب كل
عاطفة ، واصحاب كل مطمع ، اصحاب كل ألم ، يتقدمهم أبطال
« الكوميديا البشرية » بوجوههم المعروفة ، كما الفناهم ، وكما نراهم
من حولنا حتى اليوم .

المراجع

هذه قائمة مختارة ، لن تحيط بالآلاف الكتب والمقالات التي نشرت عن بلزاك بمختلف اللغات ، وإنما تقتصر على ذكر أهم المراجع نفعا وأقربها مثلا للقارئ المستزيد . وأما المتخصصون فينظرون لتبحث عن مراجعهم في .

W.H. Royce : *A Balzac Bibliography*, Chicago, University of Chicago Press, 1929-1930, 2 vol.

ثم يتابعون النظر في دوريات تاريخ الأدب الفرنسي ، ولا سيما ثلاث مجلات اختصت بدراسة بلزاك هي :

١ - *Le Courrier Balzacien* (١٠ أعداد من ديسمبر ١٩٤٨

إلى ديسمبر ١٩٥٠)

٢ - *Les Etudes Balzaciennes* (١٠ أعداد من مارس ١٩٥١

إلى مارس ١٩٦٠)

٣ - *L'Année Balzacienne* (ابتداء من سنة ١٩٦٠)

وقد أضافت الاحتفالات بالذكرى المئوية لوفاة بلزاك - في سنة

١٩٥٠ - عدة دراسات جديدة ، ينبغي أن ننبه إلى مجموعتين منها ،

أصدرت أحدهما هيئة اليونسكو UNESCO وضمت الأخرى المحاضرات التي أقيمت في السوربون (*Le Livre du Centenaire*)

ولعل أيسر مدخل إلى بلزاك هو

Ph. Berthaut : *Introduction à Balzac*, Paris, Odilés, 1953.

أولا : أعمال بلزاك

La Comédie Humaine, Furne et Cie (1842-1848). J. Du-courneau réédité, à partir de 1965, les exemplaires corrigés par Balzac, en fac-similé, Paris, Bibliophiles de l'originale.

Oeuvres Complètes, Paris, Calmann-Lévy, 24 vol.

Oeuvres Complètes, éd. illustrée, texte révisé et annoté par M. Bouteron et H. Longnon, Paris, Conard, 1912-1940, 40 vol.

La Comédie Humaine, présentée par M. Bouleron, Paris, Gallimard, éd. de la Pléiade, 1935, 10 vol.

La Comédie Humaine, textes établis avec introductions et notes, par M. Allem, Paris, Classiques Garnier.

ثانيا : رسائل بلزاك

Les lettres à l'Etrangère (1833-1847), annotées par M. Bouleron, Paris, Calmann-Lévy, 4 vol. parus.

Lettres à sa jamille (1809-1850), publiées par W.S. Hastings, Princeton University Press, 1934, Paris, A. Michel, 1949.

Correspondance de Balzac à Lulma Carraud, publiée par M. Bouleron, Paris, A. Colin, 1935, Gallimard, 1951

Correspondance de Balzac, recueillie, classée et annotée, par Roger Pierrot Paris, Garnier, 1er vol. paru en 1961.

ثالثا : عن حياة بلزاك

L.J. Arrigon : *Les débuts littéraires d'Honoré de Balzac*, Perrin, 1924.

André Bellessort : *Balzac et son oeuvre*, Perrin, 1924.

André Billy : *La vie de Balzac*, Flammarion, 1944, 2 vol.

G. Hanotaux et G. Vicaire : *La jeunesse de Balzac*, Ferroud, 1921.

Vicomte Spoelberch de Lovenjoul : *Un roman d'amour*, C. Lévy, 1896.

André Maurois : *Prométhie ou la vie de Balzac*, Hachette, 1965.

رابعا : دراسات في أدب بلزاك

Alain : *Avec Balzac*, Gallimard, 1937.

F. Baldensperger : *Orientations étrangères chez H. de Balzac*, Champion, 1927.

M. Bardèche : *Balzac romancier*, Plon, 1945.

A. Béguin : *Balzac visionnaire*, Skira, 1946.

Ph. Bertault : *Balzac, l'homme et l'oeuvre*, Boivin, 1946.

J. Borel : *Personnages et destins balzaciens, la création littéraire et sources anecdotiques*, Corti, 1959.

Miche Butor : *Répertoire*, éd. de Minuit, 1960.

E.R. Curtius : *Balzac*, Grasset, 1933.

I.H. Donnard : *Les réalités économiques et sociales dans la comédie humaine*, A. Colin, 1961.

Bernard Guyon : *La pensée politique et sociale de Balzac*, A. Colin, 1947.

La création littéraire chez Balzac, la genèse du médecin de Campagne, A. Colin, 1951.

F. Lotte : *Dictionnaire biographique des personnages fictifs de la comédie humaine*, Corti, 1952.

Loverjoul : *Histoire des oeuvres de H. de Balzac*, C. Lévy, 1886.

Claude Mauriac : *Aimer Balzac*, Grasset, 1945.

Félicien Marceau : *Balzac et son monde*, Gallimard, 1955.

Gaëtan Picon : *Balzac par lui-même*, éd. du Seuil, 1956.

Georges Poulet : *La distance intérieure*, Plon, 1952.
Les métamorphoses du cercle, Plon, 1961.

G. Pradalié : *Balzac historien*, P.U.F., 1955.

Ethel Preston : *Recherches sur la technique de Balzac, le retour systématique des personnages dans la comédie humaine*, Les Presses Françaises, 1926.

A. Prioult : *Balzac avant la comédie humaine (1818-1829), Contribution à l'étude de la genèse de son oeuvre*, Courville, 1936.

مقرم التوزيع في الجمهورية العربية المتحدة وجميع أنحاء العالم الشركة القومية للتوزيع

مكتبات الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

القاهرة ١٠٠١٢	٣٩ شارع شريف	١ - فرع شريف
القاهرة ٥٥٠٣٦	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٢ - فرع ٢٦ يوليو
القاهرة ١٦٣٨٠	٥ ميدان عرابي	٣ - فرع ميدان عرابي
القاهرة ٢١١٨٧	١٣ شارع محمد عز العرب	٤ - فرع المتنزهات
القاهرة ٩١٠٧٤٢	٢٢ شارع الجمهورية	٥ - فرع الجمهورية
القاهرة ٩١٤٢٢٣	١٤ شارع الجمهورية	٦ - فرع عابدين
القاهرة	ميدان الحسين	٧ - فرع الحسين
القاهرة ٨٩٨٣١٦	١ ميدان الجيزة	٨ - فرع الجيزة
اسوان ٢٩٣٠	السوق السياحي	٩ - فرع أسوان
الاسكندرية ٢٥٩٢٥	١٩ ش. محمد زامل	١٠ - فرع الاسكندرية
منطسا ٢٥٩٤	ميدان الساعة	١١ - فرع منطسا
المنصورة	ميدان العطة	١٢ - فرع المنصورة
أسيوط	شارع الجمهورية	١٣ - فرع أسيوط

مراكز وكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

الجزائر	شارع بن مهيدي المرمي رقم ١١ مكنو	١٤ - مركز توزيع الجزائر
بيروت	شارع دمشق	١ - مركز توزيع لبنان
بغداد	ميدان التحرير	٢ - مركز توزيع العراق
سوريا	شارع ٢٩ آيار - دمشق	٣ - عبد الرحمن الكيالي
لبنان	ص.ب. رقم ١٢٢٨ بيروت	٤ - الشركة العربية للتوزيع
العراق	مكتبة الجبلي - بغداد	٥ - فاسم الرجب
الأردن	وكالة التوزيع - عمان	٦ - وجا العيسى
الكويت	شارع التوزيع ص.ب. ١٥٧١	٧ - عبد العزيز العيسى
السعودية	الكويت	٨ - وكالة المطبوعات
بنغازي	شارع عمرو بن العاص - ليبيا	٩ - مكتب الوحدة العربية
طرابلس	شارع عمرو بن العاص	١٠ - محمد بشير الترحاوي
تونس	شارع سيد	١١ - الشركة الوطنية للتوزيع
مصر	المنطقة الخليج العربي	١٢ - وكالة الأهرام
البحرين	ص.ب. ١١ و ١٢	١٣ - المكتبة الوطنية
الدوحة	المكتبة الأهلية ص.ب. ٢١١	١٤ - مكتبة العروة
دبي/عاجل	ص.ب. ٢٧	١٥ - عبد الله حسين الرستائي
مسقط	المكتبة الوطنية ص.ب. ٢٥	١٦ - المكتبة العبدية
الكلاب	شارع عبد النبي ميدان البحر	١٧ - أحمد سعيد حلا
منامة	ص.ب. ٨٢٥	١٨ - مكتبة دار الفلم
أسرة	ص.ب. ١٧١٤	١٩ - علي إبراهيم بشر
اديس أبابا	ص.ب. ٩٣٦	٢٠ - عبد الله فاسم الحارثي
مقدشيو	ص.ب. ٨١٥	٢١ - مكتبة ستر
مباما	لندن	٢٢ - عبد الله فاسم محمد
لندن	٤٥ ش. كنديمار ص.ب. ١٢٥٥	٢٣ - مكتب توزيع المطبوعات العربية
مناجورة		٢٤ - المكتبة التجارية الشرقية
الفرطوم		٢٥ - مكتبة مصر
واي مدني		٢٦ - مكتبة النهر
الفرطوم	ص.ب. ١٥٥	٢٧ - زكي جرجس بليوس
نور سوكان	مكتبة اليوم ص.ب. ٨٨٠	٢٨ - إبراهيم عبد القيوم
طرة	مكتبة ديرة ص.ب. ٢١	٢٩ - عوض الله محمود ديرة
واي مدني	المكتبة الوطنية ص.ب. ٢١٥	٣٠ - عيسى عبد الله
كوش	ص.ب. ٤١	٣١ - مصطفى صالح

نقاط البيع للجمهور في الدول العربية

سوريا ٣٥ قرني سوري - لبنان ٣٥ قرني لبياني - الأردن ٣٥ لاسي - العراق ٣٥ لاسي - الكويت ٤٥ لاسي - السودان ٣٥ مليم - ليبيا ٣٥ مليم - قطر ٥٥ درهم - البحرين ٥٥ لاسي - عمان ٧٥ سنت - تونس ١٥٠ سنت - أسرة ٣٥ سنت - الجزائر ٥٥ سنتيم.

المكتبة الثقافية

أول مجموعة من نوعها
تحتوى اختراكية الثقافة
نيسر لكل قارئ أن يفهم
في بيئة مكتبة هامة
نحري جميع ألوان المعرفة
بأفلام أساندة ومنهجية

يشرف على السلسلة
الدكتور مكي محمد عياد

العدد القادم

ثلاثة أعراس

أودت بالخزانة الى الافلاس

بقلم

دكتور محمود أحمد الحفنى

مطابع دار الكاتب العربى

فرع الصحافة



● ولد الدكتور انور لوقا سنة ١٩٢٧
في ملوى ، بين موطنى رفاعة
الطهطاوى وطه حسين ، قطبى عصر
النهضة .

● نال دكتوراه الدولة فى الآداب من
جامعة بلزيس سنة ١٩٥٧ .

● ترجم الى الفرنسية (تخليص
الابريز فى تخليص بارين) لرفاعة،
(الفتنة الكبرى) لطف حسين ، كما
نقل الى العربى
الأدب الفرسى
والحديث .

● اهتم بالشعر
مقالاته ، وهو
يعقوب صنو

● ويشغل الآن
الفرنسى المساء
ويعد فى جنيف
السويسرى .

عزابى ووفيقه فى الثورة .

Bibliotheca Alexandrina



0678891

3.7
8lu